
أسفار
الفراعين
مصريت
للنشر والمعلومات
رواية: عز الدين شكري
Bibliotheca Alexandrina
0171968

اهداءات ٢٠٠٠
السيد/ محمـــد هــــاشــم
مدير شركة ميريت للنشر

أسفـــــار الفراعين

روايـــة



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

عزالديـــن شكـرى

تجليات أدبية

إشراف

سيد خميس

أسفار الفراعين

رواية

عز الدين شكرى

ميريت للنشر والمعلومات

٦ ب شارع قصر النيل

تليفون وفاكس

٥٧٥١٥٠٠

المدير العام: محمد هاشم

تصميم الغلاف

للفنان محمود الهندى

رقم الإيداع: ٩٩/٩١٣٩

إلى خالد منصور

كل البلاد مرايـا
وكل المرايـا حـجـر
فلمـاذا نحاول هذا الســــــفر ؟

محمــود درويــش

إلى متى يستمر هذا العذاب؟ كان صوت عبد الوهاب يأتى مغلوشا من تسجيل السيارة المتهالك. سائق التاكسى لايبدو عليه أى رد فعل لهذا الزحام وهذا الحر الخانق. ياأسوأ ميادين أرض الله ياميدان الجيزة: لعنة الله عليك وعلى أيام المرور فيك التى لاتنتهى ولاتريد أن تنتهى. تحركت السيارة التى أمامنا، فاهتز التاكسى وتحرك قليلا خلفها ثم توقف ثانية. كنت أرى الإشارة أمامنا خضراء ولكن كل السيارات كانت واقفة وكنا نحن أيضا واقفون. سيارات نقل تمر أمامى من بعيد. صوت السيارات المارقة على كوبرى الجيزة يحدث طنينا يزيد من طنين محرك السيارة المنهار. نظر إلىّ السائق ثم نظر أمامه مرة أخرى. ترى فيم يفكر؟ نظرت إليه بإمعان وحاولت تبين ملامحه فلم أستطع. كان قناع الغاز يخفى كل وجهه عدا عينيه. نوع قديم من الأقنعة. ربما من أول أو ثانى جيل من إنتاج الشركة. نظرت إلى عينيه ولكنه كان ينظر إلى الأمام فلم أتبين أى شئ. كانت البدلة البنية التى أرتديها تزيد من إحساسى بالحرارة. أأخلعها؟ ولكنى لو خلعتها سيتسخ القميص ولايزال أمامى المشوار طويلا والناس الذين سأقابلهم ناس مهمة. ربطة العنق ستخنقنى قريبا. كم مرة قلت لزوجتى أن تنقل زرار ياقة القميص لتوسعه قليلا؟ ولكن منذ متى كانت زوجتى تهتم بقمصانى؟ أزحت طرف البدلة قليلا ونظرت إلى القميص: الكُسر الصغيرة الرفيعة التى تملأه تفضح فشلى فى المكواة. أو لعلها هى التى كوت هذا القميص؟ لاأذكر. لماذا لاتتحرك هذه السيارات؟ صوت عبد الوهاب مازال يأتى من التسجيل: كيف يشكو من الظمأ من له هذه العيون؟ أنا ظمآن ياسيدى. نظرت فى ساعتى: لا، لم يحن موعد الشرب بعد. باق نصف ساعة. تحسست بيدى الحقيبة السوداء السمسونايت: محصلة سبع سنوات من البحث تقبع هنا فى هذه الحقيبة التى تشبه مليون حقيبة أخرى. سبع سنوات من البحث والسهر كل

ليلة سواء فى البيت أو فى الإدارة. هنا فى هذه الحقيبة، وهناك على كمبيوتر الإدارة نسخة أخرى، ونسختان على شرائط ممغنطة بالبيت. كل الرسومات والتحاليل والنماذج. كل شئ: كل الاختبارات المعملية والميدانية، كل الاستقصاءات والدراسات الخاصة بالموضوع، وأهم من كل ذلك: الحلول التى توصلنا لها والبدائل التى وضعناها والخطوات التنفيذية بالتوقيتات والإجراءات التعويضية المصاحبة. كل شئ. سبع سنوات، منذ التحقت بإدارة البحوث بالشركة وأنا لاأفعل سوى مواصلة البحث فى هذا الموضوع. أخيرا تحركت السيارات.

* * *

اقترب عبدالعال من محطة القطار. شكلها متغير المحطة اليوم. أو لعلى أنا الذى نسيت شكلها. سنة كاملة لم آت فيها إلى حلوان ولم أركب هذا القطار. أين أيامك القديمة ياحلوان وأيام المحاجر والضرب فى الحجارة بالديناميت؟ اقترب عبدالعال من محطة القطار، فتأكد من أن المحطة قد تغيرت. الباب مغلق وهناك إشارات غريبة ولوحات مكتوبة بخط غريب وبلغات أخرى تشير إلى مداخل أخرى لايعرفها. توقف أمام الباب القديم المغلق ووضع خلجاته على الأرض أمامه ونظر حوله فى استغراب. جاء صوت نفير القطار عاليا، ثم صوت تحركه متسارعا. لاح القطار من خلف القضبان والنوافذ. الحمدلله، هو هو نفس القطار. إذن لم أخطئ، هذه هى المحطة وهذا هو القطار. ولكن كيف الدخول؟ اقترب منه عسكرى صعيدى السمرة قصيرُ القامة ضئيلُ بجوار عبدالعال الفارع:

– بتدور على حاجة يابلدينا؟

– فين المحطة ياعم؟

أشار العسكرى بيده إلى سلم جانبى صغير وشباك يقف أمامه طابور قصير. مد عبدالعال يده وتناول خلجاته وهو يرفع يده اليسرى شاكرا العسكرى الذى انصرف دون أن يلتفت لتحيته. تقدم إلى الشباك ووقف فى الطابور حتى وصل إلى الموظف. مد يده بقروشه النحاسية. باب الحديد. نظر الموظف إلى القروش فى يده وقال بابتسامة الموظفين الساخرة:

- خمسين قرش يابلدينا

- كام؟ بتقول كام؟

- خمسين قرش يابلدينا، يالله ياسيدى الناس مستعجلة

- كيف خمسين قرش ياأستاذ؟ من هنا لباب الحديد خمسين قرش؟

زفر الموظف فى ضجر ولم يرد. مد يده إلى الذى يليه فى الطابور وأخذ منه النقود وأعطاه التذكرة فى حركة آلية وهو ينظر إلى عبدالعال: خلصنا ياسيدى. نظر إليه عبدالعال فى شك وغمغم بكلمات غير مفهومة ثم انسحب من الطابور. وقف أسفل السلم الضيق وهو ممسك بخلجاته. كان الركاب لاينقطعون عن المرور من أمامه فى اتجاه الشباك يخرجون النقود على السلم ويعودون سريعا بالتذاكر ثم يدلفون من باب آخر إلى المحطة. سمع عبدالعال صوت قطار ثان يتحرك ثم ثالث ثم رابع ثم توقف عن العد. عاد العسكرى إليه متباطئا.

- منتظر حاجة يابلدينا؟

نظر اليه عبدالعال بشئ من الخوف ثم سأله فى تردد:

- هى التذكرة من هنا لباب الحديد بكام ياشاويش؟

- بخمسين قرش يابلد

- يابوى، بخمسين قرش، دى كانت بشلن

ضحك العسكرى ضحكة العساكر المجندين عنوة لثلاث سنوات وقال:

- ده كان زمان يابلد. إنت بقى لك زمان ما جيتش هنا؟

- آه والله بقى لى زمان. يطلع سنة

نظر إليه العسكرى فى شك:

– سنة! بس من سنة التذكرة ماكانتش بشلن يابلدينا

رد عبدالعال وهو ينظر إلى خلجاته:

– جايز أزيد من سنة شوية ياشاويش. من أيام الحرب كده.

قطب العسكرى حاجبيه:

– حرب إيه ياجدع انت؟ الحرب فات عليها ولا عشرين سنة

– عشرين سنة ،كيفْ ياشاويش؟! الحرب، الحرب الآخرانية دى. مانا كنت باشتغل فى المحاجر فى حلوان لغاية الحرب ماقامت وبعدين سافرت عندينا، لأن إخواتى الاتنين راحوا الجهادية ومبقاش غيرى أرعى الأرض والنسوان والعيال. بس خلصت الحرب وأخوى رجع، قمت انا نزلت على هنا مع واحد سواق من عندينا. بس مالقيتش المحجر اللى كنت باشتغل فيه. قلت لنفسى تلاقيه انضرب. قعدت يومين أدور على محاجر ولاّ أى شغل مالقيتش غير عند بتوع الأسمنت وانا مافهمش فى الأسمنت قلت أرجع البلد وآهو أرعى ارضى وعيال أخوى اللى مارجعش لغاية مايرجع.

كان العسكرى يحدق فيه محاولا التيقن مما إذا كان مجنونا أم كذابا. ظل يحدق فيه لحظات ثم قرر أنه لن يستطيع التيقن.

– إنت معاك فلوس تروَح؟

– أنا كل اللى معاى خمسين قرش. أركب كيفْ بخمسين قرش من هنا إذا كانت تذكرة القطر من باب الحديد بخمسة وأربعين قرش؟

الآن تبين الحق من الغى. المسألة أنه ليس معه نقود ومن ثم يخترع هذه القصص. نظر إليه العسكرى ثانية. ولكنه غلبان. تلاقيه مجند مثلى وربما ألعن. ثم إنه صعيدى ولايستطيع الخلاص مع الملاعين بتوع مصر.

– إسمع يابلدينا، أنا ح ادخلك تركب القطر ببلاش، بس إوعى تقول لحد إنى أنا اللى دخلتك. إنت فاهم؟

- وح اقول إيه للكمسارى يابوى؟

- مفيش كمسارى فى القطورات دى يابلدينا. يالله يالله بلاش كتر كلام.

* * *

الغيوم تملأ السماء فى باريس. الساعة الآن الخامسة عصرا والظلام يوشك أن يحل فى هذا اليوم الشتائى. رجال الحرس يمرون بأناقتهم البيضاء المحمرة فى أرجاء اللوفر يحثون الزوار المتأخرين سهواً أو عمداً على ولوج ممرات الخروج. القطع الأثرية الصغيرة نائمة فى صناديقها الزجاجية فى جناح المصريات. صفحات كثيرة من كتاب الموتى تمتد فى صندوق زجاجى طويل بطول الممر. الإضاءة التى خفتت فى تمام الخامسة تزيد من سحرها ومن حقيقيتها ومن أسطورية وجودها فى هذه العاصمة الفرنسية تماما. الكاتب المصرى يتململ فى مكانه فى ضجر قديم دون أن يلحظه رجال الحرس المتضجرون من سخافة الزوار وإصرارهم غير المفهوم على المماطلة فى الخروج. تحتد لهجتهم فى الحديث دون أن يخرجوا عن النص المهذب فى أمر السادة الزوار فى الخروج فورا. تنسحب آخر فلول المماطلين أمام إصرار الحرس العتيد على إخلاء القاعة. يتأكد من خلوها تماما، ثم يسحب خلفه الباب الحديدى الضخم. يمضى الحرس إلى بقية غرف الجناح لإعادة نفس السيناريو. القاعة الآن خالية تماما إلا من أصحابها المقيمين. حرّك الكاتب عينيه فى إرهاق. حرك رقبته يمينا ويسارا. كل التماثيل من حوله تماثيل وكل البرديات برديات والتحف ساكنة فى الفاترينات. حرك

ذراعيه فسمع صوت قرقعة فى عظامه وتفتت. نظر إلى السماء الداكنة: ماالذى أتى بى إلى هذا المكان؟

• • •

الواحدة صباحا. ناصر يجلس فى صالة التحرير وحيدا. وردية الليل صفصفت عليه بعد أن اعتذر الزميلان الآخران. هذه هى وردية الليل. ثلاثة محررين يعتذر منهم اثنان، الفكرة كلها فيمن يلحق ويعتذر قبل الآخر. ولأنه كان نائما حتى الثالثة ظهرا فلم يستطع ان يلحق سباق الاعتذارات. الواحدة صباحا وناصر يجلس وحيدا فى صالة التحرير بوكالة الأنباء التى لا أنباء فيها منذ انقطاع المياه. السقف عال. كان لونه رماديا فى الأصل ثم فقده مع مرور الأيام. الصالة واسعة. واسعة جدا. كم هذه؟ خمسون مترا فى عشرين، أو ربما فى خمسة وعشرين. ماذا كانوا يظنون أنهم سيفعلون بكل هذه المساحة؟ نظر ناصر إلى قناعه الملقى بجواره. منذ ركبت الإدارة مرشحات الهواء على النوافذ الخارجية والأبواب وقد منع ارتداء أقنعة الغاز داخل الوكالة. ولكن هل أستطيع الثقة فى كفاءة هذه المرشحات؟ ومن أدرانى كيف صنعت ولا كيف رُكّبت؟ ولو كان هناك تسرب؟ نظر إلى قناعه ثم نظر إلى الصالة الفارغة من حوله. مد يده إلى القناع ووضعه على وجهه. أحكم إغلاق أربطته. نظر من خلف القناع إلى الصالة. الآلات الكاتبة المتراصة على المكاتب الفارغة. سلات المهملات الفارغة. الممرات المزدحمة بسيدات الوردية الصباحية ونميمتهن التى لاتنضب، فارغة الآن تماما. قام يمشى إلى دورة المياه. دفع باب دورة مياه السيدات ودخل. أنظف من

دورة المياه بتاعتنا. تفتكر هذا هو السبب فى دخولى هنا أم أن هناك سبباً آخر. مثل ماذا؟ مثل رغبة دفينة فى الاتصال بامرأة الآن. أى امرأة فى هذه الصالة الفارغة من كل شئ. لمح وجهه فى المرآة بقناع الغاز فانفجر ضاحكا. فك أربطة القناع وهو يواصل الضحك. كانت كتفاه العريضتان تهتزان بشدة من الضحك. خلع القناع ووقف ينظر إلى وجهه فى المرآة. منذ متى لم أحلق ذقنى؟ منذ أربعة أيام؟ لا منذ خمسة. ماالفارق؟ وماذا لو لم أحلقها على الإطلاق؟ على الإطلاق؟ وتركتها تنمو وتطول حتى أجرجرها أمامى وألفها فى ضفائر مثل الهنود السيخ؟ سمع ناصر صوت تكتكة يأتى من الصالة فانتبهت حواسه. معقول؟ خبر؟ أصاخ السمع: لاصوت. خرج من دورة مياه السيدات ودلف إلى دورة مياه الرجال. وقف أمام المبولة. كانت بيضاء فى الأصل ثم استسلمت لقدرها الأصفر. فك أزرة بنطلونه. لماذا يصر والدى وخياطه اللعين على الأزرار بدلا من السوست؟ ولماذا أترك أبى يخيط لى بناطيلى؟ كسل، أو استسهال، أو الاثنان معا. كان البول يأتى سريعا ومتدفقا ويشعره براحة هادئة تتسلل إلى خصره بالكامل. أغلق أزرة البنطلون وانسحب إلى الحوض. فتح الحنفية فى تلقائية فلما لم تجئ المياه تذكر وابتسم هازئا. كم من الزمن أحتاج قبل أن أوقن أن المياه قد ذهبت إلى الأبد؟ مسح يديه فى المناديل الورق المكدسة فى جيبه ثم فتح الباب. جاء صوت التكتكة عاليا هذه المرة. التفت نحو ماكينة التيكرز فى آخر الصالة. لاشئ هناك. اتجه ناصر عائدا إلى مكتبه. وضع القناع على كرسيه. سمع صوت التكتكة آت من رزم الأوراق المكومة على الأرض بجواره. نظر إليها بسرعة. خشخشة ثم انطلقت من وسطها عرسة بنية أخذت تجرى بعرض الصالة.

* * *

ابتسمت السفيرة الأمريكية ابتسامة واسعة. وضعت التقرير أمامها على المكتب البيضاوى وواصلت الابتسام. إلتفتت إلى اليمين ومالت على الديكتافون وضغطت على زر التحدث:

– ديفيد! هل أستطيع أن أرى كل شئ الآن؟

– بالتأكيد ياسيدتى. كل شئ جاهز وتم التأكد منه

– عندما أقول كل شئ فإنى أعنى كل شئ

– بالتأكيد ياسيدتى

– حسنا، سآتى فى خلال سبع دقائق. أطلب من مارك أن يكون جاهزا لمرافقتى، وربما الكولونيل لودج يهمه أن يرى معى التجهيزات. ربما لديه شيئا ليقوله لى بخصوص تعليمات الأمن الخاصة بها

– بالتأكيد ياسيدتى

– بالمناسبة، أليس لديك رد آخر غير بالتأكيد ياسيدتى؟

– بالتأكيد... لدى، طبعا

– حسنا ياديفيد، فى خلال سبع دقائق إذن

رفعت السفيرة يدها من على الزر وعادت إلى جلستها. فتحت التقرير ونظرت فيه مرة أخرى. إذن هذا مايقترحونه فى واشنطون! هؤلاء الموظفون المتأنقون فى حللهم الإيطالية والذين لم تطأ أقدامهم أرض مصر يوماً! ماذا يعرفون هم عما يحدث هنا؟ لاشئ سوى التقارير التى ترسلها السفارة ومكاتبها. لايعرفون شيئا على الإطلاق

سوى الأوراق. هل مشوا هم فى هذا العفن السائل ؟ هل ارتدوا الأقنعة ليتمكنوا من السير فى الشوارع والوصول لأى مبنى حكومى أو مقابلة أى مسئول؟ هل زاروا مستشفى واحداً واضطروا للمرور بين أسرة الموبوئين واصطناع التعاطف أمام كاميرات التليفزيون؟ ماذا يعرفون هم سوى الأوراق والأوامر؟ هزت رأسها وابتسمت. خلعت النظارة ووضعتها على التقرير وعادت بظهرها إلى الوراء فى الكرسى الفسيح. استدارت نصف دائرة لتواجه نافذتها الكبيرة. كان ضوء الشمس يبدو واضحا رغم التجهيزات الجديدة ورغم مرشحات الضوء والهواء ورغم الستائر. ياإلهى! خسارة هذه الشمس الجميلة. منذ أربع سنوات وأنا لاأستطيع الخروج فى الشمس. نظرت إلى بشرة ساقها البيضاء وهزت رأسها فى أسى. أين شمسك يانيوأورليانز؟ إذن هذا الخراء هو مايريدونه فى واشنطن! عادت بكرسيها إلى المكتب ومدت يدها أسفل الدرج الأيمن وأخرجت لوحة مفاتيح الكتابة الخاصة بجهاز الكمبيوتر. أدارت مفتاح التشغيل، فظهرت عدة رسائل خاصة بالتشغيل ثم رسالة تطلب كلمة السر. نظرت حولها ثم كتبت على الأزرار Shit . الحروف لاتظهر على الشاشة. غامت الشاشة قليلا ثم انفتح الجهاز. اختارت شبكة الاتصالات بالشفرة. وكتبت:

سرى للغاية

من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية فى القاهرة

الى وزارة الخارجية -واشنطن

بالإشارة إلى مكاتبتكم السرية بشأن إعلان مصر لمنطقة سقارة منطقة كوارث طبيعية:

– تناهى إلى علمنا أن البحوث التى أجريت أخيرا حول انتشار أمراض سرطان الجلد والرئة بين سكان منطقة سقارة بشكل وبائى منذ أبريل الماضى تشير إلى ارتفاع نسبة الأشعة تحت الحمراء فى المنطقة المحيطة بهرم سقارة بقطر ثلاثين كيلومتراً بدرجة تفوق المعدلات الدولية المسموح بها بشكل غير مسبوق. وقد قامت كل من وزارة الصحة هنا، والفريق الطبى الذى استقدمته السفارة من معهد كليفلاند للبحوث البيئية بإجراء مسح شامل للمنطقة أكد هذه النتائج. وقد أخطرت وزارة الداخلية جميع السفارات الأجنبية بالتنبيه على رعاياها بتجنب هذه المنطقة، إلا أنه لم يعلن أى شئ بشكل رسمى.

– فى حديث مع الدكتور بدير البنهاوى مدير الشركة المنوط بها مكافحة التلوث، أثناء حفل استقبال أجريته بالسفارة بمناسبة الإعلان عن بدء الجولة الجديدة من مفاوضات الدولية لمنكوبى الكوارث الطبيعية، أخبرنى بأن مصر ستطلب إعلان منطقة سقارة منطقة منكوبة عالميا، وستطلب من برنامج الأمم المتحدة للبيئة اتخاذ الخطوات اللازمة لدراسة المنطقة بشكل شامل ومعرفة مدى مسئولية خفة طبقة الأوزون عن التطورات الأخيرة

– ترى السفارة إيفاد فريق متخصص لدراسة الموقف لأهميته العلمية بالنسبة لفهم حركة طبقة الأوزون واحتمالات تأثير ذلك على المناخ أو امتدادها للأراضى الأمريكية، وكذلك للتوصية بإجراءات الحماية الواجب اتخاذها لحماية العاملين بالسفارة ومكاتبها وفريق المعونة وكذلك الرعايا الأمريكيون بمصر.

- قامت السفارة بإتمام حفر النفق الواصل بين مبنى السفارة ومساكن العاملين بالمعادى، ويبلغ طوله ٢٥ كيلومتراً، منها خمسة كيلومترات مشتركة مع مترو الأنفاق بالقاهرة وذلك وفقا للإتفاق الموقع بين السفارة وبين هيئة المترو والذى يضمن للعاملين بالسفارة أولوية استخدام النفق فى حالات الضرورة مقابل قيام السفارة بتجهيز جسم النفق بالكامل ضد التلوث والتسرب (صورة الاتفاق تصلكم فى الحقيبة)

- تعليماتكم

السفيرة

دق الديكتافون بجوارها ثم جاء صوت ديفيد:

- سيدتى، مارك والكولونيل لودج هنا فى انتظارك

تنهدت السفيرة وقالت وهى تنظر للجهاز:

- سأكون هناك حالا

• • •

يجلس بلا حراك فى الطائرة النائمة على أرض المطار. بيضاء، ناعمة، وضخمة. سوف تحملك، لا داعى للقلق. سوف تحملك إلى أرض أخرى والى سماء أخرى والى زمن آخر. يجلس فى الطائرة بلا حراك. يفك رباط العنق قليلا ويفتح زرار

ياقة القميص. بعض من الراحة فى هذا المكان بعد الوداعات الرسمية و العائلية ومندوب الرئاسة يخلِّص الأوراق ويحمل الحقيبة عنه. يجلس فى الدرجة الأولى ويحدق فى النافذة الجانبية بلااهتمام. تتجمد ملامحه شيّئا فشيئا. يضع قدمه على الدرجة الأولى من السلم ويصعد. الهواء فى مطار القاهرة مازال يلفح الصاعدين إلى الطائرات برغم ثقله وبرغم العفن الذى يقطر منه. يضع قدمه على السلم ويصعد. الهابطون ينتحون جانبا ويرفع السعاة أيديهم بالتحية الذليلة ويقومون فى ارتباك يومى عن كراسيهم الخيزران. ينفتح باب المكتب أمام خطوته ويدخل فتقوم السكرتيرة فى ابتسامتها الممكيجة حالا. ينفتح الباب الداخلى إلى مكتبه ويضع السائق الحقيبة السامسونايت على المكتب وينصرف منحنيا برأسه. يرفع رأسه إلى باب الطائرة فى أعلى السلم فتبتسم له المضيفة فى كابها الجوى الأزرق جدا. يصعد درجة أخرى على السلم ويمسك بالجدار المعدنى البارد ليستند إليه فى مقاومته للهواء. بارد هذا الجدار المعدنى. يلهث قليلا ويتوقف. يلتفت إلى مبنى المطار. لا، لا أريد أن أرى أحدا. بعد الحقائب والحلل الرسمية الغامقة المنتشرة حوله فى صالة كبار الزوار والوداعات يصعد السلم. سيرحل الآن، لاداعى للقلق. توقفت السيارة البيجو البيضاء التى تحمل طاقم الحراسة فتوقفت سيارته. نزلوا فنزل. دخلوا فدخل. ذهبوا فليذهب هو الآن وكفى. عاد مندوب الإدارة ولاشك إلى نومته فى مكتب الوزارة بالمطار. وعاد طاقم الحراسة للأجازة، ولابد أن مندوب الرئاسة قد عاد لينام ليصحو ليلا ليشيع جنازة ما. ولابد أن كافة أعضاء الوفد ينامون الآن فى الميريديان فى بورت مايوه بباريس. سأرحل الآن وسأذهب بعيدا جدا. كم سنة؟ عشرون عاما؟ وقبلها عشرون آخرون من تسلق الجبل. خطوة خطوة. واغرز رجلك جيدا قبل أن تخطو خطوة أخرى وإلا وقعت ودق عنقك. خطوة، وتثبت أقدامك ثم

خطوة. ثم تنظر من حولك ومن فوقك ومن تحتك ومن خلال. أينما كنتم يدرككم المـوت. ثم خطوة أخرى. عشرون عاما من التسلق وروحك تحملها على كتفك. ثم تصل. يبتسم لك يوما فى افتتاح معرض ويشد يوما آخر على يدك بحرارة فى حفل استقبال، ثم يحدثك دقيقتين أثناء زيارته للشركة. ثم تنفتح لك أبواب لم تكن تجرؤ أن تطرق بابها. ويبتسم لك الناس أكثر قليلا. ويدعوك الناس لافتتاحات ومعارض ومواسم أكثر قليلا. ثم يزورك مندوبو الصحف أكثر قليلا. ثم تدخل مبنى التليفزيون الأسطورى الملغز وتعرق فى اجتهادك أن تفهم أسئلة المذيعة أو تجيب عنها. ثم تسافر قليلا للخارج وتتلقى دعوتين من السفارة الأمريكية للمشاركة فى ندوات لم تسمع بوجودها من قبل فى واشنطن وغيرها. ثم ترسل لك السفارة بريدها بانتظام. ثم يقابلك مقرب منه ويخبرك أنه راض عنك وأنه يتابع نشاطك. ثم تهجم عليك موجة من سوء الحظ وتظن أنك نسيت وطويت صفحتك وينصرف الناس عنك. ولكن يظل بريد السفارة الأمريكية يصلك بانتظام.ثم يقابلك أحد مستشاريه المشهورين لفترة ويتحدث معك ثلاث ساعات. ثم يدق التليفون فى منزلك ذات مساء ويحدثك ذات المستشار مقتضبا طالبا منك الحضور فى التاسعة صباحا إلى القصر الفرعونى. ثم لاتدر مايحدث لك بعد ذلك بالضبط ولمدة أسبوع. وعندما تفيق تدرك أنك أصبحت الآن وزيرا.

ثم عشرون عاما أخر.

• • •

خرج التاكسى مما يفترض أنه الميدان. سار سريعا -نسبة إلى النصف ساعة التى قضاها للوصول من كوبرى عباس إلى سنترال الجيزة- ووصل إلى ماسوف يقودنا إلى نفق الهرم. الرحمة يارب العالمين. فى البداية حاولت أن أمشى للتخلص من هذا العذاب اليومى. قلت لنفسى إن المسافة ليست بعيدة. ربما نصف ساعة مشى وأصل إلى مبنى المحافظة. ولكن الذى حدث أنى اكتشفت أن المشى أسوأ. لا مكان للمشاة، غير التراب والزحام ومأساة المرور إما من النفق (مستحيل) أو من فوق خطوط السكة الحديد عبر حواجز من الحديد لاأدرى من وضعها ولأى سبب. مر التاكسى فى أناقة بجوار سنترال الجيزة. كانت الساعة العاشرة مساء عندما دخلت السنترال. فارغ بشكل موحش. لاأثاث ولا موظفين. بقايا زبائن كأن الزمن نسيهم هنا ونسوه. من بين المبانى الحكومية العديدة، لايوجد إلا هذا السنترال الذى يخلو من أى تجهيزات لمواجهة العفن. دخلت وأنا أرتدى قناع الغاز. زلت قدمى فى طبقة سائلة من العفن المختلط بالماء تطفو على أرض السنترال. الكبائن الخشبية مفتوحة الأبواب أومخلعة. سماعات ما كان تليفونات الكبائن مدلاة قرب الأرض ويقطر منها عفن أخضر زاه. نبتت طحالب بأرض الكبائن وطفح بعضها إلى الأرض. نظرت حولى مليا ولكنى لم أتبين مصدر الماء. كانت كل الدراسات التى أجريت بالشركة قد توصلت إلى أن الماء هو السبيل الوحيد الممكن لمقاومة العفن أو الحد من آثاره. وكان سنترال الجيزة حالة مثيرة لاهتمامى. فى البداية لم يكن أحد قد أدرجه كحالة للدراسة ضمن البحث الموسع الذى نقوم به. وقد أدرجته أنا بالصدفة عندما اضطررت للذهاب هناك عدة مرات لإجراء مكالمات تليفونية متعددة بعد خروجى من مبنى الشركة على الكورنيش. وأصبح بعد ذلك من أهم حالات الدراسة. هاهو الماء مختلطا بالعفن أو خارجا منه بما يكذب الحكمة السائدة بأن الماء

يقاوم العفن. توجهت إلى الشباك الوحيد المفتوح. الموظف قابع بجوار جهاز اتصال قديم والسماعة معلقة على كتفه. كتبت الرقم الذى أريد الاتصال به واسم البلد. نظر الرجل إلىّ ببغض من الاحترام وقال فى بطء:

- الدولى عطلان يابيه

أصبت بإحباط. ماالعمل الآن ؟ علىّ الاتصال بمدير الإدارة الموجود فى باريس ضمن وفد مصر المشارك فى مفاوضات منكوبى الكوارث (والتى صارت تعرف فى الشركة باسم "المنكوبين" اختصارا). كنت أعلم أن هذه المباحثات ستستمر على الأقل أسبوعا وربما تمتد إلى أكثر من ذلك. وكنت أريد أن أخبر المدير أن البحث قد انتهى واستعلم عن بعض الإجراءات العملية الضرورية الآن، مثل عدد النسخ التى سنطبعها، ومن الذى سيوقع على التقرير؟ والجهات التى سيوزع عليها...إلخ. كنت أكاد أجن من الفرحة هذا المساء عندما انتهينا من البحث ولم أكن أستطيع الانتظار للصباح.

- مش ممكن تحاول مرة ثانية؟

- ياأستاذ باقولك الدولى عطلان! فيه محافظات لو عايز

نظرت إلى الرجل من خلف قناعه ولم أفهم. التفت خلفى. ثم استدرت فى يأس وجررت قدمى نحو باب الخروج. كان الزبائن طالبى المكالمات ينتظرون على صفين من الكراسى البلاستيكية وقد التصقت أقنعتهم الواقية بعضها ببعض. كانوا نائمين أو شبه. وبدا أنى الوحيد الذى يعكر صفو المكان. خرجت إلى الميدان. سار التاكسى بجوار سنترال الجيزة. مر أمام "تبرعوا لبناء مجمع الإيمان بالجيزة". لم يكن الشيخ الخطيب قد بدأ دروس العصر بعد. وكان المكان هادئا. الدخان المتصاعد من شواية

الحاتى لايغرينى إطلاقا بالأكل. كيف يمكن أن يشوى أحداً لحما فى الهواء العارى هكذا بكل مايحمله الهواء من بلاوى؟ وإذا كانت الناس قد اضطرت لارتداء أقنعة الحرب الكيمائية لتقى نفسها من العفن الضارب فى بر مصر كله فكيف يؤكل هذا اللحم؟ كيف يشكو من الظمأ من له هذه العيون؟ نظرت فى الساعة. مددت يدى إلى علبة المياه المعدنية فى جيب الجاكيت الداخلى. أخرجتها فنظر إلىّ السائق ملياً. أشعر بحدة نظرته تخترق العلبة. تخترقنى أنا. رفعت عينى إلى عينيه. هاهنا كلانا من خلف أقنعتنا نتبادل عدم الفهم الذى يحتمه علينا وضعنا. هاهنا كلانا نتبادل الحذر أو الكراهية. نظرت من زجاج التاكسى. فتحت غطاء العلبة ورشفت رشفتين. أغلق الغطاء. أحكم إغلاقه. أعيد العلبة إلى جيبى الداخلى ودون أن أفكر كثيرا، أغلق أزرة الجاكيت. التاكسى يترنح قليلا بين الوقوف والسير ثم ينفتح الطريق أمامنا أخيرا. هاهو نفق الهرم. اندفع التاكسى هابطا النفق بسرعة.

* * *

فتح عينيه قليلا ثم أغلقهما ثانية. الضوء الذى اندس تحت جفنيه حاد. العطش يشقق شفتيه. حرك عضلات وجهه رويدا. الشقوق فى شفتيه حاده وكأنها تدمى. مد يده فوق عينيه وجاسر بفتحهما ثانية. الشمس تدخل فى برج العصارى ومع ذلك فحمية ضوئها لاتقل عن أشد أيام القيظ فى البلد. فتح عينيه بالتدريج. رفع رأسه قليلا فآلمه كتفه وأعلى ظهره. منذ متى وأنا ملقى على هذه الأرض الخراب؟ الرمل أصفر كالشمس أو اصفر من طول خضوعه لها. الرمل فى الأمام وفى الخلف وفى الأفق بلا

نهاية. العطش يطيح بفمه وبصدره وببطنه. لاعطش مثل هذا العطش. ولا أشد أيام الصيام فى رمضان مع الشغل فى الحقل منذ الفجر وحتى المغرب. قيظ فى السماء وعلى الأرض وفى جوفى. مال برأسه إلى جانبه الأيمن يبحث عن سلاحه. لاشئ سوى الرمل. الأفرول الأخضر الميرى ممزق عند الركبتين والساعدين وتحت الإبط. مهلهل فى بقيته. تحسس رأسه بيده. ألم حاد يأتيه من نصف رأسه الأيسر. الطاقية الميرى ذهبت واحتل التراب والرمل شعره حتى أكسبه صفرة رمادية. أين ذهب السلاح؟ منذ متى وأنا راقد فى هذه الأرض الخراب؟ متى وصلت إلى هنا وكيف؟ أين ذهب الباقون؟ كنا أربعين عسكرياً ليلة الأمس. وبعد أن ضُرب الموقع وُدمرت المعدات وخزانات الماء رحلنا باتجاه السويس.

أين ذهب الباقون؟ وأين قربة مائى ومخلتى وبقية طعامى؟ العطش يضرب فى جوانحه عصفا. استند إلى زنده وقام بنصفه الأعلى جالسا. كان ظهره كله يؤلمه ولايكاد يشعر بساقيه. هل شللت؟ أم هو الإعياء من الجوع والعطش؟ نظر حوله. لاشئ سوى الرمل. نظر ثانية كأنما ليمنح الرمل فرصته الأخيرة كى يستحيل نخلا وماء. لاشئ. ولاحتى سراب يعطيه بعض الأمل. أين أنا؟ وأين الطريق إلى السويس؟ هل يمر من هنا أحد ويأخذنى معه؟ هل تأتى حتى قوات العدو وتأسرنى. لعلنى أحيا. لعلنى أحيا ثم يبادلونى بأسير آخر. لابد وأن قواتنا قد أسرت إسرائيليين فى مواقع أخرى و يوما ما ستنتهى الحرب ويبادلوننى بأسير آخر. لماذا فررت إذن عندما ضربوا الموقع؟ كانوا هناك فى طائراتهم وكنت أكاد أرى رؤوسهم. ربما لو كنت ظللت كانوا نزلوا وأخذونى أسيرا. أسيرا ولكن حى. هل يبحثون عنى الآن؟ هل وصل زملائى إلى السويس واكتشفوا غيابى وأبلغوا القيادة وسيأتى الضباط والعساكر والعربات وربما الطائرات

أيضا ليبحثوا عنى؟ يجب أن أظل مستيقظا حتى أشير لهم عندما يأتون. وإذا لم يصلوا حتى الليل؟ يجب أن أظل مستيقظا وأن أذهب لأوقد نارا ليروننى ليلا. دفع رزق بجسده للأمام ليقوم لكن ساقيه لم يتحركا. طقطقت عظام ظهره بعنف بسهم من ألم موخز بطول سلسلة ظهره فانهار جسده كله منبطحا على الرمل. أغمض عينيه وهلة ثم فتحهما. كانت الشمس لاتزال حامية فوضع راحتى يديه على عينيه ليحميهما.

• • •

فى البداية، تشعر بالغربة وبالرهبة. وتشعر بالتزام وعبء ثقيل ومسئولية. تدقق عشرين مرة فى كل ورقة تعرض عليك. وتطلب من جميع الوكلاء رأيهم. وتستطلع الحالات السابقة. وعندما توقع يكون مدير مكتبك على وشك أن ينفد صبره منك. ولاييأس من أن يذكرك بأنها مسألة روتينية بحتة ولاتشغل بال سعادتك بهذه الأمور التافهه. ولكنك لاتصدقه لعدة أسباب. أولا: لأنك بطبعك لاتصدق أحدا والحذر خير من الندم. ثانياً: لأنه صاحب مصلحة، وهو من المؤسسة، وكان مدير مكتب الوزير القديم ومن ثم لابد وأنه متورط فى أى أخطاء سابقة. ثالثا: لأنك تريد أن تكون مختلفا. وأن تحدث فرقا وأن تشعر الجميع بهذا الفرق. أنت وزير ليس ككل الوزراء. أنت النوع الجديد من الوزراء. الجيل الجديد. أنت تكنوقراط. محترف. غير متورط فى السياسة ومثال الكفاءة والذكاء. أنت رمز التحديث والتطوير والمستقبل. نظيف، لم تمتد يدك أبدا إلى المال العام ولن تمتد. ولاتدين بمنصبك إلى قرابة أو عصابة وإنما إلى ذهنك وعبقريتك وكفاءتك. ومن ثم لن توقع هذه الورقة التافهة، هذه الورقة التى لاقيمة لها، إلا بعد أن تتحرى الأمر وتتأكد من أنها رمز للإدارة الجديدة. ثم : لايكفى هذا. بعد

أسبوع واحد تدرك أن هناك مليون ألف ورقة من هذا النـوع يجب أن توقع يوميـا وإلا توقف العمل تماما. وإلا توقف الناس عن السفر فى مهمات، وتوقفت الوزارة عن شراء المعدات، وتعطلت حركة الترقيات ثم التنقلات، والبدلات والامتيازات والتهانى والتعـازى الخ الخ. والحل؟ ثـورة إداريـة. تغيير شـامل فـى الـوزارة. خطـة جديدة وتنظيم جديد وأسلوب جديد. نقلة حضارية. تجمع كل وكلائك، ومديرو القطاعات والمناطق والإدارات المركزية. وتشكل لجنة لإعادة تنظيم الوزارة. وتشيع جوا من القلق والترقب والتحفز. تفتح مكتبك لكل من يرغب فـى لقـائك مـن الموظفيـن يومـا فـى الأسبوع، وعندمـا تبـدأ رأسك فى التحلل من كثرة من يأتونك ليحدثوك أو ليحثوك أو ليثنـوك أو ليشكوا لـك أو ليمدحوك أو ليرجوك أو ليغروك، وتتوه فى متاهات هول مـا تسـمع، تبدأ فـى اصطنـاع الأعذار لتغيب عن المكتب فى هذا اليوم: تذهب إلى مجلس الـوزراء أو تجتهد لتكـون مواعيدك فى مجلس الشعب فى نفـس اليوم أو تقـوم بزيـارات لابد منهـا أو استقبالات عاجلة. كله فى ذلك اليوم المخصص لاستقبال الموظفين. ثم تختصره رسميا إلى سـاعة واحدة فى اليوم بالنظر إلى انشغال جدول سعادتك، ثم تطلـب مـن مديـر مكتبك أن يحل محلك فى معالجة المشكلات البسيطة ثـم المعقـدة أحيانـا ثـم يذوى الموضـوع وينتهـى. وبعد ستة أشهر تكـون اللجنـة قد انتهت مـن دراسـة سبل تطوير العمـل فـى الـوزارة وأعدت تقريرا من مئتى صفحة على الأقل لهذا الغرض. وتتوه تتوه فى هذه الصفحـات، ثم تختار شخصين أو ثلاثة مـن معـاونيك الذيـن أصبحـوا مقربيـن والذيـن تتوسم فيهـم الذكاء لدراسة تقرير اللجنة وتلخيصـه لـك. ثـم تعتمـد عليهـم فـى تنفيـذ ماسـيتم تنفيـذه والإشـراف عليـه. ستلغى إدارات وتنشـأ إدارات جديـدة. وسـتدمج اختصاصـات وتنشـأ اختصاصات جديدة. وسينتقل موظفون من مكاتبهم إلى مكـاتب أخـرى. وتـزاح يافطـات

كثيرة وتظهر يافطات جديدة بأسماء الإدارات الجديدة وتظهر مطبوعات جديدة تحمل أسماء القطاعات والإدارات والوحدات. ويتم طلاء المبنى بالكامل والتعاقد على تجديد دورات المياه فى كل الأدوار. ويرتدى رجال الأمن زيا خاصا وعمال المصاعد زيا خاصا وعمال البوفيهات زيا خاصا وعمال النظافة زيا خاصا. ويتم تنظيم الدخول والخروج وعمل بطاقات للزوار وسجل لهم وربما يتم تجديد صالون الاستقبال فى مدخل الوزارة وتمنع الزيارات الخاصة فى المكاتب. وتأتى شركة التليفونات لتركب البى بى إكس ليربط المكاتب ببعضها، وتصدر قرارا بتعيين عشرات المديرين ونقل عشرات الموظفين وربما تعين بعضاً ممن كنت تعرفهم وتتوسم فيهم الذكاء والكفاءة ويشاركونك الأحلام والطموحات والرؤى الحديثة، تعينهم فى مناصب قريبة منك لتشكلوا جميعا فريقا للعمل. ثم يظهر الكمبيوتر. ويأتى لك أصحاب شركات شباب لاتعرف لهم أول من آخر، كل يقسم بأغلظ الأيمان أنه سيمدك بأقوى الماكينات وأفضل البرامج وأعظم الخبراء وكل ذلك بأرخص الأسعار. وتشكل لجنة لتلقى العطاءات وفحصها، ثم لاتثق فى اللجنة ولا فى أعضائها ولا فى أصحاب الشركات التى لم تسمع بها من قبل فتحدث وزيرا آخر يشير عليك بأن تلجأ إلى كبريات الشركات العالمية لتركب لك نظاما مضمونا للحاسب الآلى. وتفجع عندما تسمع التكلفة ولكن التحديث واجب وجزء هام من إسهامك فى تطوير العمل، فتجد خانة فاضية فى ميزانية الوزارة لدى وزارة المالية أو لدى وزارة التعاون الدولى والمعونة الأمريكية تسمح لك بإتمام الصفقة فتتمها أمام عدسات التليفزيون التى تعودت أن تأتيك فى مكتبك كلما كان فى الموضوع جهة أجنبية. وتبدأ الشركة الدولية ذات السمعة المرعبة فى توريد الأجهزة وتركيبها وتحميل البرامج والنظم وأشياء أخرى لاتدرى كنهها. ويأتيك على مكتبك ضيف جديد. أبيض اللون

ملون الشاشة فاجر الأناقة. وتشعر بالاطمئنان الحقيقى وأنت جالس على مكتبك وأمامك على اليمين يربض هذا الجهاز المعجزة الذى سيضع الوزارة كلها فى مستوى حضـارى لم يسبق له مثيل ويضعها كلها بين يديك وعلى مكتبك. ويتم الافتتاح.

ثم تبدأ فصول المأساة التى لن تنتهى أبدا ولاحتى بعد خروجك من الوزارة. فـى البداية تدخل فى باب التدريب ليتمكن الموظفون من التشغيل. ويتحول باب التدريب هـذا إلى نهب غير مسبوق لفلوس الوزارة لصالح نفس الشركة الدولية التى تقوم بالتدريب. كما يتحول إلى باب عظيم للـترويج والراحـة مـن العمـل للموظفـات اللواتـى يرغبـن فـى رعاية أبنائهن مع الإحتفاظ بالمرتب. ثم يبدأ الذين تدربوا بالفعل وتعلموا فـى الاسـتقالة من الوزارة والعمل بالخارج. ثم يقترح عليك مدير فالح أن تُنشئ إدارة خاصة للتدريـب وأن تفسخ العقد مع الشركة الدولية وتوفر الملايين من ذلك. وستكون هذه كارثة أكبر، لأنه بالإضافة للفشل فى التدريب فإن كل المشاكل الأخرى لن تنتهـى. بالإضافـة إلـى أن مديرى التدريب سيبدأون عما قريب فى إدخال تعديلات فى البرامج الأصلية تحت زعم تلافى عيوبها. فى هذه الأثناء ستكون الشركة الدولية قد رفعت على الوزارة قضيـة وغالبا كسبتها ولاسيما لوكان العقد يبيح لها ان تقاضيك فـى الخـارج. وتكون البـرامج الأصلية قد دخلت فـى أزمـة حقيقيـة نتيجـة لفتـاوى مديـرى التدريب والحاسب الآلـى ويتعطل العمل ويأخذ وقتا أطول ومجهودا أكبر ويصبح أغبى بكثير وتشـعر كلمـا دخلـت مكتبك ورأيت فوقه هذا الجهاز الأحمق بغصة فى حلقك.

فى البداية، تشـعر بالغربـة وبالرهبـة. وتشـعر بـالتزام وعـبء ثقيل ومسئولية. وعندمـا تصـل إلـى اجتمـاع مجلـس الـوزراء، تصـل وأنـت مثقـل بملفـات فـى حقيبتـك

ويموضوعات فى رأسك، وبأسئلة فى مفكرتك وبقلق عميق فى قلبك وبقراءة فاحصة قضيت فيها ليلتك. تجلس بعيدا، أو ماتتصور أنه بعيد ثم تكتشف أن كل الأماكن امتلأت وأنك جالس بالضبط بين الذين كنت تراهم فى نشرة أخبار التاسعة مساء. ولاتفهم أى شئ مما يقال لمدة شهر. تدقق فى وجوههم. أهم هم؟ أهذه الوجوه حقيقية أم صور؟ هذا وجهه أطول قليلا مما يبدو فى التليفزيون، وهذا دمه أثقل كثيرا، وهذا أقصر قليلا وأتخن كثيرا. وهذا التجاعيد فى وجهه أكثر، وهذا أحقر بشكل عام ويبدو من نظراته حقارته وتفاهته، وهذا لايرفع رأسه أبدا وهو يتكلم. وهذا أكثر جدية ولايبتسم. وهذا يجلس دائما بجوار الفرعون ولايتحدث مع أحد. ثم يسألك رئيس الوزراء فجأة عن رأيك فى موضوع يناقشونه وليس لديك أدنى فكرة عن كنهه فتتلعثم وتحمر وتصفر وتقول أى كلام فارغ ثم تصمت فجأة محاولا أن تضفى على ماقلت طابع العمق والمبدئية فيصمت الجميع فى إحراج إذ أدركوا أنك لم تكن تتابع بالمرة مجرى الحديث ثم يتدخل واحد منهم منقذا إياك بفتوى من عنده فتتحول الأنظار إليه عدا رئيس الوزراء الذى يحدق فيك بعض الوقت بنظرة لاتفهم ولن تفهم أبدا معناها. وفى المرة التالية تظل تتابع مجرى الحديث كلمة كلمة ولكن أحدا لن يسألك عن شئ. وبعد الاجتماع يقترب منك واحد منهم ويحييك وانت مرتبك فى أوراقك ويقف معك ليحدثك فى أمور لاقيمة لها ويسألك عن أناس لاتعرفهم ثم يدعوك إلى شاى أو حفل أو نزهة أو أى شئ للتعارف. وتكون تلك هى بدايتك الحقيقية كوزير.

* * *

نظر إلى جسمها الممدد على الفراش. إلى ظهرها الذى انحسر عنه الغطاء. فاتن فى حمرته السمراء. شد نفسا عميقا من سيجارته. نظر فى ساعته. السادسة صباحا. قام من المقعد الوثير المواجه للفراش وتوجه إلى النافذة. أزاح الستارة قليلا. الضوء فى الخارج يكاد يكون بنفسجيا. وشارع التحرير هادئ لم يبدأ فى ضوضاء الجنون بعد. أزاح الستارة قليلا، ثم توجه للفراش وأغلق الأباجورة. الآن يجئ الصبح ويدخل هذه الغرفة ويطرد الليل وقوانين الليل. يطرد الهدوء الناعم والسكينة التى تستبيح محرمات النهار. يطرد آثار البيرة والنبيذ وانطلاقة النفس من مخزن القيود والقلق والقواعد. يعيد الروح المشردة إلى سجنها والقناع إلى وجهى وإلى قلبى. ماذا كان اسمها هذه الفتاة النائمة فى فراشى؟ ليلى؟ أو لبنى؟ أو لمياء؟ أو أى اسم آخر. وما أهمية اسمها؟ لعلها كذبت علىّ. لعلها اخترعت لها اسما كانت تود وهى صغيرة لو أن أهلها قد سموها به. ولعلها اخترعت تلك القصص الطويلة التى كانت ترويها عن حياتها. لعلها حياة أخرى كانت تود أن تحياها. مثلنا نحن الاثنين هنا معا. نخلق حياة وهمية كنا نود لو كانت حياتنا. نخلقها ليوم واحد أو ليلة واحدة أو نصف ليلة مرة كل أسبوع لمدة ثلاثة أشهر ثم ندرك ألا فائدة وأن حياتنا الحقيقية -تلك التى لانستطيع التخلص منها أبدا- تحاصرنا وتحصرنا هنا فى مربعنا الصغير وفى قناع الغاز السخيف على وجوهنا. وماذا كنت أقص أنا عليها؟ لاأذكر. شيئا عن الوكالة؟ شيئا عن العفن السائل فى الشوارع؟ شيئا عن قناع الغاز الكريه الذى لابد منه؟ شيئا عن التجهيزات المضادة للتسرب التى ركبتها فى الشقة منذ شهرين ومكنتنى أخيرا من إصطناع حياة شبه طبيعية داخل الشقة؟ شيئا عن النبيذ الفرنسى وعن محمود درويش؟ ولا أعرف ماالصلة بين كل هذه الموضوعات. ربما لم تكن هى الأخرى تسمعنى مثلما كنت أنا

أيضا لاأسمعها. هى مساحة للبوح بيننا ولايهم أن نسمع بعضنا. تقلبت على السرير لتبعد وجهها عن الضوء فى المخدات. نظر ناصر إليها ملياً. قام إلى المرآة وأحضر البايب وملأه، ثم أخذ فى إشعاله. شد نفسا عميقا ثم أنفاسا قصيرة وسريعة. كانت رائعة فى الجنس. لا، غير حقيقى. لا، لا أذكر. هل كانت هى الرائعة أم تلك الفتاة التى قابلتها الأسبوع الماضى فى مهرجان السينما؟ لا أذكر. ولولا علامات أكيدة لشككت أنى مارست الجنس معها بالأمس أصلا. لابد وأنها كانت رائعة. امرأة بهذا السحو لابد وأنها رائعة فى الجنس. ولكن لماذا لا أذكر؟ هل أفرطت فى الشراب إلى هذا الحد؟ إنطفأت توليفة البايب، فقام وأعاده إلى المرآة. مشى خارجا من غرفة النوم، إلى الصالة، إلى المطبخ المفتوح على الصالة. وضع البن فى الكنكة على النار ووقف ينتظر. نظر إلى ماكينة القهوة التى أحضرها له فخرالدين من باريس فى العام الماضى أو الذى سبقه لم يعد يذكر أو يهتم أن يذكر. حاول عدة مرات أن يعد القهوة عليها ولكن القهوة كانت تخرج ماسخة لاطعم لها. قال فخرالدين أنها تعطى أفضل النتائج مع البن الفرنسى. ابتسم ناصر. نحن لانجد الماء هنا يابن الكلب، فمن أين لى بالبن الفرنسى؟ صعدت القهوة فى الكنكة إلى قرب حافتها، فرفعها ناصر وصبها فى كوب القهوة. لم يغسله منذ أسبوع. كانت الوكالة قد وزعت عليهم حصص المياه المعدنية ناقصة هذا الشهر، ومن ثم كان عليه أن يقتصد إلى أقصى درجة فى استخدامات المياه. كان بطبيعته يشرب قليلا من الماء ولكن كثيرا من القهوة والشاى، ومع الحبوب الجديدة التى طرحتها الشركة فى الأسواق، والتى تلين الهضم وتحل بذلك جزئيا محل الماء، أصبح فى حِل من الشرب تماما. البيرة أيضا تحل محل الماء طبيا. ولكن الكارثة فى مياه الغسيل التى كانت المحافظة توزعها على العمارات والتى أخذت تتناقص فى

الشهور الأخيرة ثم اختفت تماما. كان البواب هو الذى يتولى تحصيلها وتوصيلها للشقة. ومنذ شهر، ولا قطرة واحدة. ثم اكتشف البواب أناسا يبيعونها فى السوق السوداء. ولكن سعرها كان فظيعا. ربما خمسة أو ستة أضعاف السعر الذى كانت المحافظة تبيع به، والذى كان فى رأى الكثيرين سعرا فاحشا وكان بالفعل فوق طاقة الكثيرين. ومن ثم بدأت فى إلقاء الملابس المتسخة بدلا من غسلها، وعرفت طريق الملابس الكلينكس التى تلقى بعد ارتدائها سبع مرات، وتلك المصنوعة من الألياف الصناعية والتى لاتتسخ، لأنها لاتمتص العرق ولايلتصق بها التراب أو العفن السائل ولكنها أغلى كثيرا ولاتلبس إلا فوق ملابس أخرى كلينكس. أخذ ناصر كوب القهوة وعاد إلى الغرفة. كانت الفتاة لاتزال نائمة ومختبئة تحت الغطاء. شعر ناصر بالبرد. وضع كوب القهوة أمام المقعد وتوجه إلى جهاز التكييف ليطفئه. توقف لحظة ونظر إلى الفتاة المتدثرة بالأغطية ثم عدل عن رأيه. سحب الروب البنى من على الشماعة وارتداه. جلس يشرب القهوة. المشكلة الأخرى كانت فى الاستحمام والنظافة الشخصية وفى غسيل الأطباق والأكواب وخلافه. بدأ ناصر منذ فترة يستخدم اللوسيون الذى طرحته الشركة والذى يُمسح على الجسم بقطعة من القطن فينظفه دون الحاجة إلى الماء. كان مطهرا جيدا ولكن رائحته كانت ديتول لاحل لها. ولكن الأنواع الجديدة كانت معطرة بعطور مختلفة. أما الأوانى فكان لايغسلها إلا مرة فى الأسبوع، ولذا كان يحتفظ بها فى الثلاجة بعد الأكل فيها حتى لايتحلل الأكل أو بواقيه ويتسبب فى مشاكل لالزوم لها. نفس الشئ للأكواب. ثم ينظفها باللوسيون إياه، ثم يمسحها ببعض الماء فى النهاية إن نجح البواب فى شراء لتر أو إتنين كل أسبوع وإلا غسلها من حصته من مياه الشرب المعدنية. تقلبت الفتاة فى الفراش فى قلق من يوشك على الاستيقاظ. نظر

اليها ناصر مرة أخرى بتمعن. كان وجهها الآن واضحا فى مواجهته. لم أره بوضوح هكذا بالأمس. ربما من تأثير البيرة. صاف ورائق. خمرية البشرة، دقيقة الملامح، هادئة ونائمة ومستسلمة. شعرها أسود قصير. نظارتها الطبية الرفيعة على الكومودينو. عنقها أكثر خمرية من وجهها. كأنها هندية حمراء. كان ينظر اليها بإمعان عندما فتحت عينيها فجأة. نظرت اليه فوجدت عينيه فى عينيها. ابتسمت ابتسامة واسعة وراضية. أغمضت عينيها ثانية لحظة. توقف ناصر عن التفكير فى الماء وفى الأوانى وفى اللوسيون وظل محدقا فيها. فتحت عينيها مرة أخرى وابتسمت، أزاحت الغطاء قليلا ثم قامت واقفة مرة واحدة. عارية تماما. صباح الخير. قالت، ثم سارت ومرت بجواره فاحتك جانب خصرها الأحمر بجانب الروب البنى عند كتفه. سارت فى اتجاه الحمام. ظل ناصر ناظرا حيث كانت. عادت فأوقفها. التصقت بساعده ولم تتحرك. طوقها وضمها اليه. أسندت رأسها إلى كتفه العريض ولم تنطق بكلمة. أمسك بها من كتفيها ورفع رأسها إليه. نظر فى عينيها فابتسمت ثانية. مال عليها وقبّلها ثم ضمها إليه بشدة.

* * *

كانت عربات القطار تنهب الطريق من حلوان باتجاه القاهرة. يتوقف القطار كأنما فجأة عند محطة. لحظات قليلة ثم تدوى صفارة حادة وتنهد الأبواب مغلقة لوحدها ويطير القطار ثانية. عبدالعال القابع فى كرسيه الوحيد فى آخر العربة الأخيرة خائف ومرتاب. ماالذى جرى لهذا القطار الغريب؟ لم يكن سريعا هكذا ولامخيفا هكذا.

وأين ذهب الكمسارى؟ وكيف تنغلق الأبواب وحدها هكذا؟ أجن هؤلاء الناس؟ كيف تنغلق الأبواب هكذا؟ وماذا لو انغلقت علىَّ وأنا خارج؟ كيف آمن الناس لهذا القطار المرعب؟ نظر عبدالعال فى خلسة حوله. لاأحد يبدو عليه دهشة أو خوف. ربما هم أيضا خائفون ولكن يتظاهرون بالصلابة مثلى. لكن النساء؟ لايبكين ولايرقعن بالصوت الحيانى ولا أى شئ. حتى الأطفال يلعبون حول أهاليهم ولا كأن هناك أى شئ غير عادى. معقول يتغير حال الدنيا هكذا فى سنة؟ أكيد حكاية التلوث هذه هى السبب. حتى عندنا فى البلد وزعوا علينا غطيان الرأس البلاستيك وقالوا لنا إن لم نلبسها طول النهار والليل نموت. وبعدين فى الأول طبعا ماحدش صدق. ماهى الحكومة طول عمرها بتقول كلام ولايتحقق. والناس أخذت الغطيان ووضعتها عندها بالبيوت ولاعملوا بها حاجة. غير إن العيال صاروا يلعبون بها استغماية. وبعدين جاءت الهوجة بعد الفيضان وراح فيها حوالى نصف البلد. الله يرحمهم. أفاق عبدالعال على انطفاء النور فجأة وحلول الظلام. نظر حوله فى انزعاج. كان كل شئ مستمراً فى اعتياديته، غير أن السماء قد اختفت والأشجار والهواء والنور وكل معالم الحياة. ظلام مطبق يحيط بالقطار المنطلق فى طريقه أعمى. الناس لايبدو عليها أى تأثر بما حدث. كأن السماء تنطفئ كل يوم من حولهم هكذا. فجأة ظهر نور ساطع وبدت معالم حياة. ناس وحوائط وعساكر ولافتات. توقف القطار فطار عبدالعال ناحية الباب وألقى بنفسه خارجا قبل أن ينغلق عليه الباب الغادر. وقع على أرض الرصيف ومن حوله انفرطت خلجاته. حركة الداخلين للقطار والخارجين لاتنقطع، ويمر الناس وسط حاجياته المبعثرة. ياأخى ماتاخد لك جنب كده. دفعه الرجل القصير ذو النظارة الطبية السميكة والكيس الورق الأصفر. دوت صفارة القطار ثم انطلق فجأة مثلما وقف. تنفس عبدالعال الصعداء وهو يلم

خلجاته فى بؤجته. كان الناس من حوله قد اختفوا جميعا عدا عسكرى أسود الملابس يتمشى فى آخر الرصيف. نظر من حوله. كان كأنما داخل مصلحة حكومية. هل هذه محطة قطار؟ هل أحلم أم أن عقلى قد ضرب؟ حمل خلجاته وسار داخل المحطة. كانت تشبه تلك التى ركب منها فى حلوان. أسهم وإشارات وكلمات لايفهمها على لافتات بيضاء صغيرة. ظل سائرا مخلفا الرصيف والقضبان وراءه. لاحت له سلالم فى نهاية الصالة الواسعة. اتجه اليها. حاجز من الأسوار المعدنية الفضية اعترض طريقه. وقف قبلها بقليل. نظر اليها ثم نظر حوله. تقدم اليها ودفع نفسه من فتحة فيها. لا تنفتح. وبعدين فى هذه المصيبة الأخرى؟ عاد عبدالعال إلى الرصيف واقترب من العسكرى:

- السلام عليكم ياشاويش

- إيه يابلدينا؟

- هو إيه ده ياشاويش؟

- إيه اللى إيه يابلدْ؟

- إيه الهلومة دى؟

نظر العسكرى اليه فى ارتياب

- دى محطة السيدة يابلدْ

- السيدة زينب؟

- إيوه

- شىلله ياسيدة. ماشاء الله. دى محطة القطر؟

- إيوه يابلدْ، دى محطة القطر، مترو الأنفاق يعنى.

- مترو؟ مش ده قطر حلوان؟

- إيوه يابلدْ هو، بس اسمه مترو الأنفاق، ماهو ده مترو الأنفاق اللى بيقولوا عليه فى التليفزيون. انت مش واخد بالك إننا تحت الأرض ولا إيه؟

- تحت الأرض؟ مين ده اللى تحت الأرض؟

- إحنا دلوقت يابلدْ

- إحنا تحت الأرض؟

- آى نعم

نظر عبدالعال إلى العسكرى واسقط فى يده. بسم الله الرحمن الرحيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. الراجل ده مجنون ولا إيه. ولا نكون تحت الأرض بصحيح ياعبدالعال. يانهارإسود. أكونش اتندهت ونزلت مع ال... أعوذ بالله... أعوذ بالله. نظر عبدالعال إلى العسكرى والرعب باد فى عينيه. تراجع خطوتين إلى الوراء. إلى الوراء فى اتجاه الرصيف. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. اقترب الجندى منه مادا يده ليمسكه كيلا يقع على القضبان الحديدية. تراجع عبدالعال أكثر عندما رأى يديه تمتد. كانت هناك ضوضاء تتصاعد والعسكرى يقترب منه مادا يديه. صرخ عبدالعال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. الضوضاء تتصاعد. استدار عبدالعال وانطلق يعدو. دخل المترو إلى المحطة. عبدالعال يعدو بجوار الرصيف والجندى يجرى وراءه. انفتح باب القطار، فألقى عبدالعال بنفسه داخله. توقف الجندى. أغمض عبدالعال عينيه وهو يستعيذ بالله. دوت الصفارة وانطلق القطار خارجا من المحطة.

* * *

- ياولاد الكلب!

نظرت سحر عيسى إلى أعضاء الوفد وهم يبتسمون للصحفيين. كان نائب رئيس الوفد، الدكتور بدير البنهاوى ينهى إجابته على سؤال أحد الصحفيين، بينما تأهب بقية أعضاء الوفد لمغادرة صالة كبار الزوار باتجاه الطائرة الجامبو الرابضة على أرض المطار. كان عليهم أن يتوجهوا إليها سريعا وفقا لتعليمات الطيران الجديدة التى كانت تمنع على الطائرات المكوث بمطار القاهرة أكثر من ثلاثين دقيقة وإلا مكثت به للأبد. حملوا حقائبهم السامسونايت وتوجهوا نحو الباب الخارجى. جاء صوت سحر عيسى حادا وسط همهمة السلامات الأخيرة:

- وماأخبار مشروع البحث يا دكتور بدير؟

التفت إليها الدكتور فى ابتسامة واثقة:

- البحث يسير على قدم وساق ويقوم عليه مجموعة من خيرة الباحثين بالشركة

- ولكن المفروض أن سعادتك تشرف بنفسك على هذا البحث وفقا لتصريحات رئيس الوزراء، فكيف يتفق ذلك مع سفرك مع الوفد إلى باريس؟

- الباحثون على اتصال دائم ويومى بى ياأستاذة. بالإضافة إلى أن وجودى مع الوفد بناء على تعليمات السيد رئيس الوزراء، كما أنه سيسهم فى تنشيط وتدعيم البحث الجارى حاليا بمقارنة نتائجه المبدئية مع النتائج التى توصلت لها الدول المتقدمة.

مر مسافر عربى طاعن فى السن ومن خلفه شاب نحيف، طويل القامة وامرأة فى الثلاثينات. توقف الدكتور بدير عن الحديث وهو ينظر إليها. نظرت المرأة له طويلا

وهى تمر بجواره. نظرت سحر إليها وقالت لنفسها: امرأة أخرى تبيع نفسها من أجل اللقمة. استطرد الدكتور بدير:

– كما أن هذه الزيارة مثلما ذكرت لزميلك ستساعدنا على تطوير إنتاج الشركة من أقنعة الغاز. والآن أشكركم جميعا على اهتمامكم بالحضور

– ولكنى لدى معلومات من باحثى الشركة بأنهم يجدون صعوبة شديدة فى الاتصال بك، وأنك لم تأخذ معك حتى صورة من النتائج المبدئية للبحث.

التفت إليها الدكتور بدير متبرما:

– ياأستاذتى العزيزة: هذا كلام أقل مايوصف به أنه غير دقيق، ولكن لنؤجل الحديث فيه إلى ما بعد عودتنا من المفاوضات

– ولكنك لم تجب على سؤالى!

أشار الدكتور بدير بيده مودعا وهو يتقدم الوفد خارجا من الصالة. عند الباب وضعوا أقنعة الغاز الجديدة. انفتح الباب وخرجوا إلى الهواء. استقلوا عربة صغيرة وهم يلوحون للمصورين. سارت العربة باتجاه الجامبو. وضع علاء يده على كتف سحر مبتسما:

– بالراحة على الراجل ياسحر!

– ده ابن وسخة. وبعدين شيل إيدك من على كتفى، إحنا ح نتصاحب ولا إيه؟

وضعت سحر حقيبتها على كتفها ومضت فى اتجاه باب الخروج. لافائدة. طالما أولاد الكلب هؤلاء يسيطرون على مقاليد الأمور فلا فائدة. طبعا هم مسافرون إلى باريس ليتفسحوا ويستنشقوا بعض الهواء النقى ويضعوا من بدلات السفر وخلافه. ولابحث ولامفاوضات ولادياللو. أى بلاد متقدمة تلك التى سيقارن نتائج البحث بها؟

بالأمس أخبرها صديقها الذى يعمل بوكالة الأنباء أن المفاوضات لن تبدأ قبل أسبوع من الآن. صديقة أخرى تعمل فى الشركة قالت لى ان الدكتور بدير غاضب على الباحثين الذين يعملون فى المشروع وأنه عامل لنفسه شلة من بعض الباحثات والسكرتيرات وأن بقية إدارة البحوث فى الطراوة. وبقية أعضاء الوفد جهلة ولم يسبق لهم السفر للخارج أو الاشتراك فى أى مفاوضات. لكن مولانا فرعون مصر قد قرر مكافأتهم كل لسبب مختلف بهذه الرحلة إلى بلاد النور. فراعين فراعين. كلهم أولاد كلب. وضعت سحر قناعها على وجهها وهى تهرع خارجة من المطار إلى موقف الأتوبيس. كان ٤٠٠ واقفا فقفزت فيه واحتلت لنفسها الكرسى الذى خلف السائق مباشرة. وعندما أفتح فمى يقولون عنى أنى منحلة. أوكيه. أنا منحلة، ومن فى كل هؤلاء البشر غير منحل؟ من فى هذا العفن السائل فى الشوارع والطافح فى الهواء يستطيع أن يزعم أنه نظيف؟ تحرك الأتوبيس بطيئا. فلول من الصعايدة الذين كانوا يودعون صعايدة آخرين راحلين للعراق يقفزون فى الأتوبيس الذى مازال يطوف جول الموقف. آخرون قادمون من العراق يقفزون بحقائبهم داخل الأتوبيس. شاب وفتاة فى الكرسى المجاور يختلسان لمسات مشبوبة وخاطفة. ابتسمت سحر. يا ولاد الهبلة، ماتتطلعوا على أى مصيبة وتخلصوا نفسكم! فى الأتوبيس؟! أخذ الأتوبيس سرعته وانطلق فى شارع المطار. أغلقت سحر نافذتها. هذا ليس هواء لأستنشقه. الساعة الآن الرابعة عصرا. يجب أن أذهب للسفارة الأمريكية فى السابعة مساء للقاء مسئول الأمن هناك وسؤاله عن التجهيزات الجديدة التى يقال أن السفارة قد اتخذتها لحماية موظفيها من التلوث. وبعد ذلك يجب أن أذهب للمجلة لتسليم الموضوعين. هذا الكلام لن ينتهى قبل العاشرة مساء. هل أذهب إليه بعد ذلك أم أذهب الآن وأتركه فى السابعة؟ ابتسمت عندما

تذكرته. ماالذى أدخل هذا الشخص الغريب فى حياتى؟ وكيف تركته يقتحمنى بهذه السرعة؟ صحيح أنى عرفت رجالا كثيرين، ونمت مع رجال كثيرين، ولكنى لم أترك نفسى لأحد بهذه السرعة أبدا. المهم أنه ليس فيه أى شئ غيرعادى. لاهو متحدث لبق ولا دمه خفيف ولا حلاوته مش على حد ولا أى شئ. صحفى عادى، مثقف نعم وسمعت عنه قبل ذلك -من بنات أيضا- ولكنه نصف مجنون ونصف بدائى. لكن فيه شيئاً جذاباً بشكل غير عادى لا أدرى ماهو. ربما حالة عدم المبالاة التى لايخرج منها هذه. ربما وحدته وبريته. ربما خشونته وعبقريته معا. طبعا هناك أشياء أخرى اكتشفتها بعد ذلك. وهى أشياء تؤكد أن غريزتى لم تخطئ الاختيار. كان الأتوبيس قد وصل إلى شارع رمسيس وتوقف فى الزحام عند غمرة. العرق يتكون خلف أذنى سحر ويزحف على بشرتها السمراء المحمرة. مدت يدها فى حقيبتها وأخرجت منديل كلينكس مسحت به عرقها. تبدو حمراء أكثر فى هذا الحر. نظرت إلى الشارع المزدحم بالسيارات الواقفة وزفرت فى ملل:

- بدأنا القرف

• • •

مدت السفيرة يدها إلى جهاز الكمبيوتر لتفتحه. استدعت ملف البرقيات المرسلة. وبدأت:

سرى للغاية

من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية بالقاهرة

إلى وزارة الخارجية -واشنطن

١. تناهى إلى علمنا اليوم أن الموت يضرب فى أنحاء بولاق الدكرور وإمبابة منذ أسبوعين على الأقل. وهذان الحيان كانا حتى وقت قريب من الأحياء الشعبية الأكثر ازدحاما. (يرجاء الرجوع إلى برقياتنا عام ١٩٩٢ حول نشاط الجماعات الإسلامية فى إمبابة) وتجئ هذه التطورات نتيجة عاملين رئيسيين:

- الأول: هو تسرب الأشعة تحت الحمراء من المنطقة المعلنة منطقة كوارث طبيعية بسقارة.

- والثانى: هو استفحال العفن والتلوث بالمنطقتين.

٢. وفور بدء الوباء، زحف الأهالى باتجاه منطقة المهندسين، فقامت قوات الحرس الفرعونى بتطويق المنطقة ومنع الأهالى من عبور جسرى ناهيا والكوبرى الخشب الموصلان إلى المهندسين والدقى. وقامت بعثة فنية من الحرب الكيماوية ومن الشركة بالتوجه للمنطقة الموبوءة لفحص الحالة وخلصت هذه البعثة إلى أن المنطقتين قد أصيبتا إلى غير رجعة. ومن ثم أعلنت وزارة الداخلية مساء اليوم أن كردون المدينة سينتهى بحذاء شارع السودان اعتبارا من أمس عند منتصف الليل. وقامت قوات الحرس الفرعونى بمعاونة فنيى الشركة بإقامة الحواجز الأتوماتيكية بطول شارع السودان لمنع أى شخص من الخروج من هاتين المنطقتين. وقد أبلغتنا المصادر أن عدد الموتى داخل إمبابة وحدها يقدر بالآلاف وأن الجثث تنتشر بطول مجرى النيل. وقد بدأت وحدة الوقاية (من الشركة) برش المواد الكيماوية بالطائرات فوق مجرى النيل

من ناحية الزمالك لحماية المدينة من أى عواقب وبائية قد تنتج عن تراكم الجثث على الجانب الآخر.

٣. فى اتصال هاتفى اليوم مع نائب مدير الشركة (لغياب المدير فى مهمة بباريس) أبلغنى أن الحكومة قد قررت وقف أى إمدادات للمياه المعقمة داخل هاتين المنطقتين اعتبارا من أمس باعتبارهما منطقتين مفقودتين. وأبلغنى مندوب الصليب الأحمر بالسفارة أن وحدات خاصة ستصل خلال أيام لجمع الجثث ودفنها.

٤. ملحوظة إلى الشئون المالية: كانت السفارة تستخدم أربعة عمال نظافة من المنطقتين المشار اليهما عاليه ولم يتوجهوا لأعمالهم منذ يومين، مما يوحى بأنهم قد فقدوا فى الوباء الأخير أو على الأقل لن يستطيعوا مغادرة مناطقهم. ستقوم السفارة بعمل إعلان لشغل وظائفهم اعتبارا من غد.

السفيرة

* * *

رفع رزق رأسه وفتح عينيه. كانت الشمس توشك على المغيب وضوؤها الأصفر الأحمر الأقحوانى يملأ السحب والسماء فى الأفق. الرمل الأصفر مازال أصفر. كان رأسه ثقيلاً جدا والصداع يضرب نصفه بمطارق من مسامير. الجوع أو العطش أو اليأس أو كل ذلك معا. الليل يأتى ولم يظهر أحد ليأخذنى من هذه الصحراء. ربما سيأتون الآن؟ يجب أن أقوم لأشعل نارا كى ترانى الطائرات. حاول رزق أن يتحرك، ولكن أيا من أعضائه لم يعد يطيعه. ليس أمامك سوى الاستلقاء هكذا كالنعجة التى

تنتظر موتها. أين الطائرات والجنود ورفقاء السلاح؟ وأين ذهبت مخلتى وطعامى وشرابى؟ أين ذهبت بقية الجيش كله؟ وأين الأعداء؟ أسند رأسه للرمل وأغمض عينيه. جاء عبدالعال ضاحكا وهزه بقوة. مد يده بزمزمية الماء إلى فمه. رفع رزق رأسه وأخذ يشرب ويشرب والزمزمية لاتنقص. دخلت أم سليمان حاملة صينية الطعام. اعتدل رزق فى رقدته ومد يده إلى الصينية. قسم البطة قطعتين ورفع نصفها إلى فمه وهو يشير إلى أم سليمان وعبدالعال أن يأكلا. دخل سليمان ومحمدين وسيد وعلى والتفوا جميعا حول رزق. افترشوا الأرض الطينية وبدأوا جميعا فى الأكل. كان الجرجير طازجا خارجا لتوه من الحقل والماء لاينقطع من القلل الرطبة المنداة. ابتسمت أم سليمان ودارت وجهها بطرف طرحتها.

– ألم يحن الوقت ياعبدالعال لتتزوج؟

أكمل رزق:

– آى والله، وآهى أخت أم سليمان كبرت وجاءها الخطاب

– ومن يرعى البيت والغيط فى غيابك يارزق؟ هو لو كنت انا متجوز كنت عرفت أخلى بالى من أرض أخوك اللى فى الجهادية من سنين.

– وماله ياعبدالعال؟ تتجوز وتخلى بالك من الأرض وآهو معاك أخت أم سليمان إيدها بإيدك

نظر عبدالعال بعيدا وقال:

– ننتظر شوية كمان يارزق ياخوى، ماحدش يعرف بكرة جايب معاه إيه.

كان رزق يأكل ولكن الجوع كان يفتك ببطنه كأن الطعام يذهب فى الفراغ. كان يحرك يديه وذراعيه ولايتحركا. يأكل أسرع وأسرع قبل أن يفيق من الحلم ويختفى

الطعام. كان البرد ينغز فى جنبه ويشده خارج الحقل إلى الصحراء الجرداء التى هو ملقى فيها وهو يتشبث بالطعام ثم بذراع عبدالعال كيلا يذهب، كيلا يفيق تماما. عبدالعال ينظر اليه وهو يردد:

- نستنى شوية ياخوى ماحدش يعرف بكرة فيه إيه

البرد ينغز فيه ويشده لليقظة. حرك ذراعه ليلفه حول جنبه ليحميه من البرد، فانفتحت عيناه. كان الليل صافيا والنجوم تلمع والرمل فضياً. أغلق عينيه ثانية فأبصر بقايا أم سليمان والعيال وعبدالعال والطعام مشوشا. مد يده ليلمسهم، ليبقيهم أو ليبقى معهم، لكن البرد كان يعلو داخل مقلتيه والليل الصحراوى قاهر. فتح عينيه ونظر فى الأفق. لاطائرات ولاجنود آتية. لابارقة ضوء.

* * *

كان الموت ينتظرها. لاأقل من ذلك. ليس الفقر، ليس العوز، ليس سوء الحال ولاتدهوره، ليس حتى العفن ولا الجفاف ولا العطش، ليست النار المندلعة من ثقب الأوزون عند سقارة، ليست حواجز الحرس الفرعونى حول القاهرة وعند مصرالجديدة، ليست حملات وزارة الصحة الباحثة عن الموبوئين للقبض عليهم وترحيلهم إلى المعازل، ليس أى شئ من ذلك ولا ماهو أكثر من ذلك، بل الموت نفسه، شخصيا. يقف هناك. فى آخر هذا الشارع الذى لم يعد شارعا فى بولاق الدكرور. فى آخر هذه المساحة من الأرض الخراب. من الزمن الخراب. فى قلب هذا الخراب كان الموت، واقفا ينتظرها وينظر إليها وينظر فى ساعته مستعجلا وصولها إليه. الموت الذى كف عن

الذهاب للناس وصار ينتظرهم، كان هناك وكانت تراه وتراه جيدا وتعلم أنه هناك ينتظرها هى ولا أحد غيرها. إما أن تذهب إليه أو تذهب فى هذه السيارة المعقمة الواقفة، أمامها فى وسط العفن السائل فيما كان شارعا يوما ما فى بولاق الدكرور. السيارة واقفة وما عليها سوى الاقتراب ثم تمد يدها وتفتح الباب وتدخل وينغلق الباب خلفها ويشفط الشفاط القليل من العفن الذى تسرب داخلا، ثم تنطلق السيارة عبر كوبرى ناهيا وتعبر حواجز الحرس الفرعونى بتصاريح الدخول الجاهزة والموقعة على بياض. سيكتب اسمها على التصريح ثم تمرق السيارة. سيظهر التصريح لرجال الفرعون، سينظرون فيه وسيرون التوقيع ثم تنعدل قامتهم ويظهر بعض الاحترام وبعض الخوف على سحنهم البغيضة، ثم يحركون الحواجز الأوتوماتيكية وتنطلق السيارة داخلة إلى كردون المدينة. سأدخل القاهرة التى لم أدخلها منذ سنوات. منذ كنت فى الثامنة وكنت أذهب إلى المدرسة. من قبل العفن ومن قبل الجفاف ومن قبل الحواجز. سأدخل المدينة وسأجد بعضا من الماء للشرب. وبعضا من الطعام. وقناعا ضد العفن وضد التلوث وضد الأشعة الحمراء. وسأجد مستشفى أغسل فيه كليتى المنتهيتين. وسأجد مطارا وتذكرة وحقائب. وسأجد وسأجد. وسأترك هذا الموت الذى يقف هاهنا وينظر إلىّ فى وقاحته. باب السيارة مغلق الآن أو أذهب إليه عدواً وأنهى المسألة. مدت فاطمة يدها إلى باب السيارة وفتحته وألقت بنفسها سريعا داخلها قبل أن يتسرب إليها العفن، قبل أن تعيد النظر، قبل أن تفكر مرة أخرى، قبل أن يأتيها الموت الواقف أمامها. دخلت بسرعة وأغلقت الباب. انطلقت السيارة عدواً. تجاوزت فاطمة الموت الواقف الذى انتحى جانبا خشية أن تدهسه السيارة. نظرت إليه فى عينيه فى تشف. آه ياموت يا ابن الكلب. الآن أدوس عليك وعلى أمك. يامن عذبتنى وأقضت

مضجعى وأخذت منى زوجى وأطفالى وأهلى واحدا واحدا. فى وقفتك الكئيبة هذه، وكنت أراهم يأتون إليك واحدا واحداً ولاأستطيع لهم دفعا. ياأكأب خلق الله جميعا. أنا أدوسك وأدهس سيرتك وشكلك ورائحتك وسككك. أذهب الآن عالية فى انتصارى عليك. سأذهب، سأسافر وأترك لك هذه الأرض الميتة كى تذوب عليها سيدا فيها. لتحرقها وتحرقك. سأذهب أنا إلى أرض جديدة وسماء جديدة وحياة. عش أنت وحدك فى موتك الأبدى. توقفت السيارة بعد كوبرى ناهيا. ثوان وانزاحت البوابات الحديدية الثقيلة. مرت السيارة فى بطء وسط الحراسة المكثفة. العيون من خلف الأقنعه ترقب الركاب. اجتازت الحواجز . الآن صارت داخل المدينة. صفرت العجلات فى انطلاقة السيارة على الأسفلت وطرطش العفن على الرصيف. لاأحد يسير فى شارع السودان. لاأحد. طارت السيارة فى طريقها إلى المطار.

* * *

كان التاكسى يجتاز نفق الهرم مسرعا، وكانت الشمس تلقى بأشعتها على الحى كله. منذ سفر مدير الإدارة وأنا أحاول الاتصال به بلا فائدة. كأن باريس ليس فيها تليفونات. فى البداية قلت لنفسى لابد أنه سنترال الجيزة الحقير هو السبب. دائما الدولى عطلان. ثم حاولت مع سنترال الجيزة الآخر، الدولى. لكنه هو الآخر كان الدولى به عطلان. لحظة واحدة، إذا كان الدولى عطلاناً فى سنترال الجيزة الدولى فما الذى كان يعمل إذن؟! الاتصال من الشركة كان مستحيلا، لأنه تلزم موافقة الدكتور بدير نفسه كى يسمح لى بإجراء مكالمة دولية. ومن ثم لا أستطيع الاتصال به هو فى باريس.

بالتأكيد بدا لى ذلك عبثا إداريا بحتا ولكن هذه هى اللوائح وليس هناك مايمكن عمله. حاولت مع سنترال الدقى ثم التحرير ثم مصر الجديدة ثم ألماظة ثم المعادى إلخ إلخ. ودائما نفس النتيجة. كل صباح، آخذ تاكسى وأدور به فى المدينة كلها بحثا عن سنترال به خط دولى ولا فائدة. وبعد شهر قلت الأفضل أن أنتظر عودة الدكتور بدير. لكنه عندما عاد مكث ليلتين فقط ولم أتمكن من رؤيته. فى أول ليلة كان لديه اجتماع مع مديرى الإدارات وبالطبع لم أستطع مقابلته، وفى اليوم التالى ذهب إلى القصر الفرعونى وبالقطع لم يكن هناك محل للسؤال عن إمكانية مقابلته. مدير مكتبه نظر إلىّ من خلف نظارته الرفيعه فى دهشة عندما سألت عن إمكانية مقابلته:

- باقول لحضرتك الدكتور راح يقابل الفرعون.

ثم سافر ثانية. منذ متى كان ذلك؟ من شهر أم أكثر؟ لم أعد أذكر. التاكسى يسير فى قلب شارع الهرم الآن. عبدالوهاب أنهى أغنيته، فامتدت يد السائق لتقلب الشريط.

- ممكن الأخبار؟

نظر السائق إلىّ شزرا:

- الراديو عطلان يابيه

كنت أعلم أن الراديو ليس عطلانا وأنه يكذب. هو لايريد أن يسمع الأخبار ليس إلا. استسلمت وجاء صوت عبدالوهاب ثانية: الميه بتروى العطشان..وتطفى نار..بدا لى ذلك مستفزا. نظرت إلى السائق فى حدة. نظر إلىّ فى تراجع بسيط:

- هو سعادتك منتظر تسمع إيه فى الأخبار؟

- يعنى مش أحسن من اللى انت مشغله ده؟ ميه إيه وعطشان إيه؟ هيه الحكاية ناقصة؟

-كله زى بعضه يابيه، ماتحطش فى بالك

ماحطش فى بالى. هذا ماقاله لى السيد مدير مكتب السيد الدكتور بدير البنهاوى رئيس مجلس إدارة الشركة ومديرها العام. أمال أحط فين؟ تقلصت قبضة يدى على الحقيبة السامسونايت. متى كان ذلك؟ من شهر أم أكثر؟ ربما منذ أكثر من ذلك، لأنى عندما تشاجرت مع مدير المكتب كان قد مر أكثر من شهر وأنا أحاول مقابلة الدكتور بدير. ثم قابلته بعدها بشهر، ثم حدثت الخناقة الأخرى بعدها بشهر أيضا. وهناك موضوع البنت الصحفية وذلك أيضا أخذ لوحده حوالى شهر. ثم موضوع وقفى عن العمل ثم القضية ثم إعادتى للعمل. لا لا. لابد وأنه قد مر علىّ وقت طويل جدا. لا ليس شهر أبدا. ربما سنة أو أكثر. لم أعد أعرف. وماذا يهم الوقت؟ هل يُحسب الوقت هنا بنفس المقاييس التى يُحسب بها فى بقية أنحاء العالم؟ أليس ذلك ظلما؟ هل إحساسنا نحن بالوقت مثل إحساس الآخرين؟ مثل إحساسهم بالوقت فى باريس مثلا؟ ألا يجب أن يقيموا حسابا للوقت خاص بالمناطق المنكوبة والموبوءة؟ وآخر للمناطق السليمة وآخر للمناطق البين بين؟ كان التاكسى متوقفا فى طابور طويل للسيارات فى شارع الهرم. نظرت إلى آخر الشارع فلم أبصر نهايته. أطفأ السائق موتور العربة وقال:

- يبدو أن موكب الفرعون سيمر من هنا.

سيمر من هنا؟ شخصيا؟ سيمر من هنا أمامى؟ ألا يمكن له أن يرانى؟ ألا يمكن لى أن أحدثه ولو لعشر دقائق فقط؟ لا، لعشر ثوان فقط. سأقول له أن لدى الحل هنا فى هذه الحقيبة. وسيدهش ويطلب منى أن أذهب معه. وسأركب معه فى موكبه وأذهب إلى القصر الفرعونى فى مصر الجديدة وهناك سأعرض عليه الحل كاملا، كل شئ كل

الرسومات والتحاليل وكل شئ. وسيقف الدكتور بدير مخذولا وخجلا ونادما على تجاهله لى وللمجهود الخرافى والعبقرية التى وضعتها فى هذا البحث. وسيلومه الفرعون على مافعله ولكنى سأكون أفضل منه وسأقول للفرعون أن الخطأ لم يكن خطأه وإنما خطأ من حوله. وخصوصا مدير مكتبه الكلب. سأطيح به خارج الشركة تماما. وسينبهر الفرعون بعبقرية الحل وبساطته وسيعيننى مشرفا على التنفيذ ويعطينى كافة الصلاحيات لتطبيقه. وربما يعينى رئيسا للوزراء. سيأخذ الموضوع من عشرة إلى خمسة عشر عاما ليكتمل التنفيذ. ولن أظل كل هذه المدة رئيسا للوزراء بالطبع، ولكن يكفينى خمسة أعوام أقيم فيها أسس البرنامج وأضعه على الطريق وبعد ذلك يكفى أن أكون مديرا للشركة أو مستشارا للفرعون. حتى لو تغير الفرعون، حتى لو مات وجاء آخر، سأظل أنا مستشارا لشئون مكافحة العفن. والله لا أطمع فى منصب ولايحزنون، يكفى فقط أن يسمحوا لى بالعمل من أجل القضاء على هذا العفن وهذا التلوث وهذا نهاية مبغاى. ولا مال أريد ولا جاه ولكن فقط أن يسمحوا لى بأن أنفذ الحل الذى توصلت إليه بعد كل هذه السنوات. بلد بأكمله سيخرج من الظلمات إلى النور. فقط لو أستطيع مقابلته. كان صوت سيارات البوليس آتيا من بعيد ويعلو. تقدمت عربات الحرس الفرعونى الجيب أولا ثم مر موكب الفرعون فى سياراته السوداء المغلقة. صمت الشارع لحظات بعد مروره ثم بدأ فى الحركة. أدار السائق مفتاح الكونتاكت فدار الموتور. بدأت السيارة فى التحرك ببطء فى الطابور.

كانت خناقتى الأولى مع مدير مكتب الدكتور بدير. كنت وقتها قد انتهيت لتوى من البحث وكنت سكرانا بالنتائج المبهرة التى توصلت إليها. وأردت مقابلته كى أطلعه

على هذه النتائج وكى نبدأ وضعها موضع التنفيذ. وكان الدكتور بدير دائم الأسفار لايقعد فى مصر سوى أيام قليلة وأحيانا ساعات قليلة. وكان طول الوقت إما فى اجتماعات أو مقابلات أو فى القصر الفرعونى. وذات يوم أفلتت منى أعصابى وصرخت فى مدير مكتبه وظللت أزعق فيه. قلت له إنه يعيق العمل ولا يعرف مقتضيات وظيفته وأن أمثاله هم السبب فى انتشار العفن. الرجل ذهل وحاول تهدئتى فى البداية. ولكن السيل كان قد بلغ الزبى مثلما يقال ولم أعد أملك زمام نفسى. ظللت أزعق فيه وطلعت عليه إحباطات السنوات الثمان من البحث والإجهاد وقرف السنترالات العطلانة والملل من انتظار عودة الدكتور والوقوف ببابه. كان صوتى يعلو مع الوقت واتهاماتى تتعالى. وقلت له إنه ولابد ضالع فى مؤامرة ضد مصر أن يمنع شخصاً مثلى من مقابلة مدير الشركة المنوط بها مكافحة العفن، وأنى سأقابل الدكتور سأقابله وسأقول له كل ما لا يعرفه من وساخات الشركة وخباياها. لم أكن أعرف شيئا ذا قيمة عن مثل هذه الخبايا ولكنى كنت مغتاظا لأقصى درجة ووجدت الرجل خائفا منى، فزاد ذلك من هياجى. وصار صراخى مسموعا فى مبنى الشركة بالتحرير بل وخارجه. وبدأ الصحفيون والمراسلون القابعون فى الصالة الفرعونية فى التجمع خارج باب المكتب لسماع ما سأقوله. وماهى إلا دقائق ودخل ثلاثة من حراس الأمن وحملونى هيلا بيلا وألقوا بى خارج المبنى كله. عدت يومها إلى مكتبى فى مبنى الشركة فى الجيزة وأنا محطم تماما. من يومها وأنا ممنوع من دخول المبنى الإدارى فى التحرير. بعد ذلك حاولت أن أكتب مذكرة بما حدث أو مذكرة بنتائج البحث وأرفعها بالطرق الرسمية إلى إدارة الشركة. ولكن مدير إدارتى كان دائما فى صحبة الدكتور بدير فى مباحثاته بالخارج والداخل وكان لابد من توقيعه حتى تصبح المذكرة مذكرة ويمكن توزيعها على بقية

الإدارات وعلى المدير العام نفسه عندما يعود لمكتبه. وظللت طويلا على هذه الحال. كنت أذهب إلى مكتبى يوميا لكن لم يكن لدىَّ ماأفعله. كنت قد انتهيت من البحث وكان المفروض أن يتلو ذلك تعميمه على الإدارات ودراسته ثم رفعه للجهات العليا في الدولة إلخ إلخ. لكن شيئا من ذلك لم يحدث. في الواقع لم يحدث أى شئ إطلاقا. نائب مدير إدارتى رفض التوقيع على أى شئ حتى يعود مدير الإدارة. وكان واضحا أن لديه تعليمات بذلك من مدير مكتب الدكتور بدير فلم أحاول معه كثيرا. كنت قد أيقنت أنه لايمكن فعل أى شئ حتى يعود مدير إدارتى أو الدكتور بدير أو كلاهما. وأقلعت عن المحاولات الفاشلة للاتصال تليفونيا بمقرهم شبه الدائم بباريس، حيث تستمر المفاوضات فى جولاتها. أى لم يعد لدىَّ ما أفعله. كنت أذهب إلى المكتب بلا هدف سوى التوقيع للحضور والانصراف والتأكد من أن مدير إدارتى لم يأت بعد. كان المكتب كئيبا بلا عمل. وبدأت اكتشف المكتب لأول مرة باعتباره مكتبا. باعتباره غرفة وأثاثاً ومفروشات وتجهيزات. كان ذلك فى الشتاء الماضى. واكتشفت أن المكتب كئيب للغاية. فى الشتاء، كان البرد قارصا لدرجة أنى لم أكن أستطيع إخراج يدى من جيبى. وفى الصيف، كان حارا لدرجة خانقة. كان الأثاث معدنيا رمادى اللون والأرض عارية بلا أى شئ يغطى قبحها. واستغربت كيف أمضيت ثمانى سنوات هنا دون أن أتبرم أو أشكو أو حتى ألاحظ كل هذا القبح. كنت أذهب فى الصباح وأجلس على مكتبى. أطلب شايا من صلاح وأشربه. ثم أظل جالسا على المكتب أقرأ الصحف. عند الظهر أكون قد أنهيت الجرائد كلها بالوفيات وبالكلمات المتقاطعة. ثم أظل من الظهيرة أنتظر حتى تصبح الساعة الثالثة فأعود إلى المنزل. وكان المشوار من ميدان الجيزة إلى منزلى فى أول الهرم أسوأ من الانتظار ثلاث ساعات فى المكتب. بعد عدة أيام خفت على جهاز

الكمبيوتر من الركنة بلاعمل. أو بالأدق خفت على المعلومات الموجودة بالداخل أن تنمحى لأى سبب بالصدفة أو بالعمد، ففتحت الجهاز ووضعت له كلمة سر جديدة. وبدلا من أن أغلقه قلت أرى مايوجد من ملفات أخرى غير تلك التى كنت أعمل عليها خلال السنوات الماضية. وأثناء التفقد وجدت ملفا كاملا يحتوى على ألعاب. دخلت فيه من باب التسلية لأرى ماذا يحتوى ومن الذى وضعه. بدأت أجرب بعض الألعاب. كان موظفون آخرون من إدارات أخرى هم الذين وضعوها، ولكن بما أن الشبكة واحدة التى نعمل عليها جميعا كان يمكننى الدخول عليها من عندى. دخلت على لعبة اسمها الديجر فوجدت أسماء كثيرة أعرفها مسجلة على قائمة الأرقام القياسية. بدأت ألعب، وكانت فى الحقيقة مسلية للغاية. فى أول يوم كان أدائى ضعيفا جدا ولايقارن إطلاقا بالأرقام الموجودة. ولكن بعد حوالى أسبوعين من اللعب المتواصل من التاسعة صباحا وحتى الثالثة بعد الظهر أصبحت نتائجى جيدة. وفى الأسبوع الثالث دخل اسمى لأول مرة فى قائمة الأرقام القياسية. كان الأخير. وفى اليوم التالى كان قد اختفى وظهر اسم شخص آخر مكانه: أشرف إسماعيل. كنت أعرف شخصا بهذا الاسم هو نائب مدير إدارة المستخدمين ولكنى استبعدت أن يكون يشغل وقته فى هذه التفاهات. وخلال الأسبوع الذى تلى ذلك كانت المباراة الفرعونية بينى وبين أشرف هذا على المراكز الأخيرة. ثم سبقته نهائيا بعدها بحوالى أسبوعين. وبدأت أنافس اسما آخر، إيهاب أبوحديد. لاأعرف من هو ولكننا ظللنا نتنافس مدة أطول من أن أتذكرها. وذات يوم فوجئت برجل فى الخمسين من عمره يدخل علىّ المكتب وهو محمر الوجه مهتاج:

– يابنى ارحمنى أنا قد والدك!

كان ذلك هو إيهاب أبوحديد مدير إدارة البيوأوكسيدز. طبعا تعرفنا وشربنا شـاي وأصبحنا نتقابل دائما على شاشة الكمبيوتر. ومع الوقت اكتشفت بقية أطراف اللعبة. كان كل الموظفين مشتركين فى لعبة أو أخرى، فكانت هناك مجموعة الديجر، ومجموعة التترس، ومجموعة برنس، ومجموعة سبيس إنفيدرز، ومجموعة الباراتروبرز...إلخ إلخ. وأصبح الوقت يمر سريعا جدا فى الشركة. وأصبح لى أصدقاء كثيرون، إلا أنى لم أستطع أبدا كتابة المذكرة التى أريد كتابتها أو مقابلة الدكتور بدير. وفى كل مرة أحاول فتح الموضوع مع أحد من أصدقائى الجدد، يتجهم وجهه ويغير الموضوع. كانوا أصدقائى بشرط واحد، ألا أتجاوز حدود اللعب.

انكشف الطريق أمام التاكسى الذى انطلق فى قلب شارع الهرم. مر سريعا أمام مبنى المحافظة المحصن بالنوافير التى تدارى أعمدة العفن المتصاعد من المبنى. مر أمام مبنى الريان تحت الحراسة الأبدية. مر أمام ليسيه الهرم المغلق منذ زمن. كان التاكسى يجرى فى الشارع مسرعاً، وكان عبدالوهاب يغنى، وكانت الشمس ساطعة. ثم عاد مدير إدارتى. وكنت أول من دخلوا إليه فى الصباح. قلت له حمدلله على السلامة ثم رويت له كل شئ بالتفصيل. ظللت فى مكتبه قرابة الثلاث ساعات وكان معى صورة من كل شئ. عرضت عليه نتائج البحث بالتحاليل والرسومات والأرقام والكمبيوتر والإحصاءات والتجارب وكل شئ. وقصصت عليه قصة مدير مكتب الدكتور بدير وقصص السنترالات والتليفونات وكل شئ، حتى الأوقات التى كنت أجئ فيها للمكتب ولا أجد ماأفعله "سوى اللعب على الكمبيوتر". كان يستمع إلىّ طوال الثلاث ساعات فى صبر وانتباه شديدين.

– والآن ماالعمل ياسيادة المدير؟ هل تحدث الدكتور بدير؟ أم أقابله أنا؟ أم نرسل مذكرة أم ماذا؟

صمت المدير لحظات ثم قال:

– دعنى أفكر قليلا فى أنسب الوسائل. أنا يادوبك رجعت اليوم. دعنى أقلب الموضوع فى رأسى كام يوم ثم أجس نبض الدكتور بدير لكى يكون تصرفنا فعالا. نحن لانريد شوشرة من أجل الشوشرة، دع لى هذا الموضوع كام يوم كده.

فى اجتماع الإدارة الذى تلى لم تأت سيرة هذه المسألة، وإنما دار الاجتماع حول أهم الأحداث التى وقعت بالإدارة أثناء غياب المدير. كان كل باحث يعرض ملخصاً لما قام به خلال الفترة المنقضية. ولما جاء الدور علىّ قلت باختصار إنى أنهيت البحث الذى كنت مكلفا به والذى استغرق السبع أو الثمانى سنوات الماضية لم أعد أذكر، وسلمت للمدّير نسخة من كل شئ على شرائط ممغنطة. لم أكن أحب الحديث طويلا فى هذه الاجتماعات. كنا حوالى عشرة باحثين وباحثات. فإذا تحدث كل واحد ربع ساعة بالإضافة للمدير ونائبه، فمعنى ذلك ثلاث ساعات كاملة اجتماعاً وهذا مالا أطيقه. لكن بعض الزملاء، وخاصة الأكبر سنا، لم يكونوا يشاطرونى هذا الرأى. كان الدكتور فاروق يتحدث على الأقل ثلاثة أرباع الساعة. كان قد حصل على الدكتوراه من منحة دراسية قديمة جدا مما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى، ولكن لسبب من الأسباب فإنه لم يحصل على أى منصب يتناسب ومؤهله بل ظل مجرد باحث بالإدارة. وكان من الواضح أن ذلك يقتله كل يوم خاصة وأن نائب المدير لم يكن حاصلا على دكتوراه. ربما لهذا السبب كان يتعمد الإطالة فى الحديث فى كل الاجتماعات حتى لو لم يكن لديه مايقوله. كان يتحدث ببطء، ويفكر فى وسط العبارة، ويبدأ عبارات ولايتمها، ويسرح لحظات،

ويقص قصصاً لاعلاقة لها بموضوع الاجتماع ولا ببقية حديثه. ولكنـه فـى كل الأحـوال كان يشغل الوقت الذى قرر أن يشغله. وكان الباقون ينصرفون إلى أشياء أخـرى. نـائب المدير يستأذن ثم يختفى نصف ساعة خـارج غرفـة الاجتماعـات ثـم يعود قـرب نـهايـة حديث الرجل. المدير يقرأ فى أوراق أمامه أو حتى فى جريدة، ونحـن صغـار البـاحثين تتحمل عبء السمع والإبتسام. يومها كان يتحدث عن أشباه الموصلات. وكان يتعمد أن يقول اسـمها بالإنجليزيـة: السيميكوندكترز: ولاأدرى مـا الـذى جـره لذلـك. وأن أمريكـا تحتكر انتاج السيميكوندكترز وتحرم على اليابان صنعهـا، وأن أمريكـا أوضحـت لليابـان أنها لو صنعت السيميكوندكترز فإنـهـا ستعلن عليـها الحرب. كـاد أن يغشـى علـىَّ عنـد سماعى لهذا الكلام الفارغ. أى حرب تلك التى ستعلنـها أمريكـا علـى اليابـان، ومـاأدخل أشباه الموصلات فى هذا الهراء، ثم إن المنتج الرئيسى لأشباه الموصلات هو الشـركات اليابانية، وماعلاقتنا نحن بكل ذلك؟ وكيف حصل هذا الفسـل علـى الدكتـوراه؟ أى ريـح فاسدة ألقت بــه الـى إدارة البحـوث؟ ومـاالذى أتـى بـى إلـى هـذا المكـان؟ كـان زملائـى يبتسمون للرجل فى يأس، وكان الآخرون منصرفين عنـه. وكنت أرغب حقيقة فى القفـز من هذا الدور الحادى عشر إلى الأرض والانغماس فى قلب العفن. العفن هاهنا، فى هذه الغرفة الأنيقـة، العفن ينبـع مـن هنـا، مـن السيميكوندكترز. لـم أستطع الاستمرار فـى الاجتمـاع. تقهقـرت بمقعدى للخلـف واستأذنت وخرجـت. عدت إلـى مكتبـى مسـرعا فارتطمت بصلاح عند الباب.

– إعمل لى شاى والنبى

– دلوقت يابيه؟ (يقصد والاجتماع؟)

– أيوه دلوقت (أقصد وانت مالك)

دخلت إلى المكتب، وبحركة آلية فتحت زرار الكمبيوتر وبدأت ألعب ديجر. لم أفق إلا والساعة تشير إلى الرابعة. لأول مرة منذ نهاية البحث أتأخر على زوجتى. فى هذا اليوم حطمت الرقم القياسى ووضعت اسمى أعلى قائمة الشرف. هبطت السلالم مسرعا. كان المصعد يتوقف عن العمل بعد الثالثة ظهرا. خرجت من مبنى الشركة واتجهت إلى ميدان الجيزة. أشرت إلى تاكسى وركبت. كان شارع الهرم قد عاد إلى زحامه. التاكسى يقف مرة أخرى فى طابور السيارات. عبدالوهاب مازال يغنى؛ ياوابور قول لى رايح على فين، ياوابور قول لى ووا خدنى لمين، ياوابور قول لى ،ياوابور قولى. السائق ينظر إلى الأمام ولكن ليس حقيقة. رأسه متجه للأمام ولكنه لاينظر. نظرت فى ساعتى، كانت تشير إلى الثالثة ظهرا. باق على موعدى ساعة ونصف. التاكسى متوقف أمام كازينو الليل. أمام نقطة شرطة الوسط. باق على الأقل ساعة بهذا المعدل حتى أصل إلى ميناهاوس. حيث سأقابل السيد مينا شخصيا. مر يوم، ويومان، وعشرة أيام، وأكثر. ولم يحدث أى شئ. ثم سافر مدير الإدارة فى جولة مفاوضات جديدة. ماكنت أعجب منه حقيقة هو على ماذا يتفاوضون؟ إذا كانوا غير ملمين بالموضوع أساسا ففيم التفاوض وعلى ماذا؟ كانت مفاوضات المنكوبين عملية شاقة ومعقدة ويدخل فيها أكثر من مائة وأربعين دولة بالإضافة لمئات الشركات وعدد لابأس به من البيوت المالية والبنوك. وكانت فى الإدارة وحدة لتحليل هذه المفاوضات وتحديد نماذج للمواقف المصرية فى هذه المفاوضات ولكن الباحث القائم عليها كان زى حالاتى بالضبط. يعمل ويجهز النماذج ويعرضها على مدير الإدارة فى اللحظات التى يتاح له رؤيته فيها أو أثناء الاجتماعات ثم لاشئ. وذات يوم وأنا ألعب الديجر وجدت اسمه فى أسفل القائمة. كان قد دخل فى اللعبة حديثًا. فى يوم من الأيام التى تلت ذلك، عاد مدير

الإدارة، فدخلت عليه دخلة مشابهة لتلك التى دخلتها على مدير مكتب الدكتور بدير. وبعد عدة محاولات من جانبى لدفعه للتحرك أيقنت أنه أيضا لن يفعل أى شئ ولن يتحرك. ولم أفهم معنى ذلك. هذا هو مدير إدارة البحوث فى الشركة المكلفة بإدارة مكافحة العفن والتلوث يرفض أن يرفع إلى مدير الشركة تقريرا بالبحث الذى ُيفترض أنه سيقدم حلا جذريا للمشكلة برمتها. قلت لنفسى لعله خائف على منصبه، لعله يغار منى، فقلتها له بصراحة: أنى مستعد أن أضع إسمه هو على البحث بالكامل وأن أكون أنا مجرد مشرف على التنفيذ. كان مايهمنى حقيقة هو البدء فى التنفيذ وإنقاذ مايمكن إنقاذه من هذا البلد المسكين، لكنه هاج لما سمع ذلك وبدأ فى مهاجمتى: "وانت فاكر نفسك إيه؟ وانت حتة عيل، هو انت اللى جبت التايهة؟ يالله بلاش كلام فارغ"، إلى آخر القائمة المعروفة من حديث المدير لمرؤوسيه. ولما أدركت ألا فائدة فى هذا الاتجاه لم يبق أمامى سوى الاحتمال الآخر وهو أنه ضالع فى المؤامرة مع مدير مكتب الدكتور بدير. ولم أخف. قلتها له عالية كالصاعقة فى وسط الإدارة. وهبدت الكرسى فى الكلوب وخرجت فى وسط الإدارة وأنا أصرخ كالمجانين على بقية الباحثين أن يأتوا ويتفرجوا على السيد مدير الإدارة. وكانت مسخرة لم تحدث مثلها فى الشركة من قبل. وانتهى الموضوع مثلما انتهى سابقه بحملى إلى خارج مبنى الشركة. وطبعا فى اليوم التالى عندما جئت كالبرئ فى الصباح أخبرنى موظفو الأمن فى أدب شديد أنى ممنوع من الدخول وأنه تم نقلى إلى إدارة الاستحقاقات. حينئذ أدركت أن المواجهة مع قوى الشر فى الشركة أصبحت حاسمة وبلا رجعه. رفضت استلام أمر النقل وعدت للمنزل. ُدهشت زوجتى عندما رأتنى عائدا مبكرا هكذا. جلست على الكمبيوتر وأخذت نسخة من البحث كله على شرائط أخرى وخرجت. لم أكن أعلم أين يمكن أن أذهب. لم يبق أمامى سوى

الدكتور بدير شخصيا. وأنا لا أعلم أين هو ولامتى يأتى. أخذت تاكسى وذهبت إلى مدينة نصر حيث يسكن. لم أجد الحراس عند الباب، فعلمت أنه غير موجود. وظللت كل يوم أنزل فى الصباح وأتوجه إلى منزله فى مدينة نصر، ثم إلى مبنى الشركة فى التحرير حيث أنظر من بين السور لأرى ما إذا كانت سيارته واقفة أم لا، ثم إلى مبنى مجلس الوزراء لأسأل ما إذا كان بالداخل أم لا، ثم إلى مجلس الشعب، ثم أعود إلى المنزل وأكرر هذه الجولة فى المساء. كانت إدارة المستخدمين قد أرسلت إلىّ إنذارا بالفصل. وكان أشرف إسماعيل هو الذى وقّع الإنذار. لابد أنه كان سعيدا جدا بالتخلص من منافسه العتيد فى الديجر. أخذت الإنذار إلى محام صديق ورفعت قضية على الشركة. وكنت فى هذه الأثناء أواصل رحلاتى المكوكية يوميا بحثا عن الدكتور بدير. كم من الوقت مر فى ذلك؟ بأى مقياس؟ بمقياسى أنا؟ ربما أسبوع. بمقياس المناطق المنكوبة؟ ربما ألف سنة. بمقياس زوجتى؟ أكثر من اللازم بكثير. ثم وجدته. بمنتهى البساطة. وجدته ذات مساء فى مبنى الشركة بالتحرير. كانت الساعة تقارب العاشرة مساء، وكنت عائدا لتوى من منزله حيث لم أجده، مررت على مبنى الشركة فى التحرير فوجدت سيارته داخل المبنى واقفة وحدها، كأنها معجزة. عند الباب لم يكن هناك سوى الحارس الليلى وحراس الدكتور بدير الشخصيين. لم أكن أعرف أيا منهم وأشك أن أيا منهم يعرفنى. دخلت باتجاه مكتب الأمن فى هدوء. كانت حقيبتى السامسونايت التى لم تعد تفارقنى ولا أفارقها فى يدى، وكنت أرتدى بدلتى وأبدو كأى من موظفى الشركة. سألت على مدير مكتب الدكتور بدير فقالوا لى إنه غير موجود. قلت والدكتور؟ قالوا موجود. قلت يجب أن أقابله فمعى له مستندات هامة. وأخرجت

بطاقتى الوظيفية فى مغامرة محسوبة. نظر الحارس فيها ثم اتصل بالتليفون الداخلى ثم قال لى فى بساطة متناهية:

- اتفضل، الدكتور فى مكتبه

كأن كل شئ لم يكن له فائدة. كأن خناقاتى وصراعاتى ورحلاتى اليومية كانت سدى. هاأنذا أدخل إلى مكتب الدكتور بدير وفى يدى البحث والوثائق. كأن ذلك كان أسهل شئ فى الوجود. فيم إذن كان كل ذلك؟ فيم كان فقدانى لعملى وتشريدى؟ على العموم كله سينتهى. كل ذلك سينتهى. سأدخل الآن عليه. من هذه الثغرة التى لم يستطع المتآمرون سدها، الحظ، أو النصيب، أو القدر. سأدخل الآن وسأنسف المؤامرة وسيعود كل شئ إلى مجراه. وأحسن. سأقابل أهم رجل فى مصر الآن، الشخص الذى بيده كل أجهزة وسياسات مقاومة العفن والتلوث، منتج الأقنعة، ومصمم الحلول والاستراتيجيات، والمشرف على تنفيذها فى كل القطاعات، والمستشار الأهم للفرعون، والمفاوض الأول لمصر فى مفاوضات المنكوبين. الآن، على بعد خطوات. بخلت المبنى. وضعت قدمى على السلم العريض. غاصت قدماى فى السجاد الأحمر الفخم. رائحة المبنى المميزة وأبهة القصور الملكية القديمة بأسقفها العالية المزخرفة. حتى كل سنوات العفن التى لاتعد لم تفلح فى القضاء على رونقها. تقدمت عبر الصالونات إلى مكتبه فى آخر المبنى. ابتسمت لى سكرتيرة وقورة الحسن والشقرة. أعطيتها بطاقتى الوظيفية فابتسمت وقالت :

- حظك حلو، الدكتور خلص بدرى النهارده وكان يادوبك ماشى

قلت:

- بالتأكيد حظى حلو

دخلت وغابت ثانيتين وعادت فى الهدوء السائد فى ليل المبنى

- تفضل

طرقت على الباب طرقة خفيفة ودفعته ودخلت. كانت السيارة تنطلق فى طريقها. وبدأت قمة الهرم الأكبر تلوح من بعيد حين تسمح المبانى العالية لى بالرؤية. كانت تلك هى اللحظات الوحيدة التى استمتعت فيها بصوت عبدالوهاب. صوت موتور السيارة خفت مع الحركة، واختفى ضجيج السيارات الأخرى التى لم تعد موجودة. كان التاكسى منطلقا فى فضاء شارع الهرم نحو الهرم. وكان عبدالوهاب يغنى مضناك، وكانت الشمس تخفت من حدتها. كانت المقابلة مع الدكتور بدير قصيرة. وخرجت منها مثل الخيل بعد السبق. كان وجهه أبيض وطيبا وتبعث ابتسامته على الثقة. قصير القامة، ممتلئ بعض الشئ. كان فى منتصف الأربعينات. استمع إلىّ قليلا ثم قاطعنى:

- يعنى قل لى ماذا تريد بالضبط؟ الحل فى الحقيبة، ومؤامرة فى الشركة، وعودتك للعمل. سآخذ منك الحقيبة بالحل وأدرسه بنفسى. إذا اتضح أن الموضوع جدى سأفتح تحقيقا فوريا فى الموضوع ولن يكون فيه أى مجاملة لأى شخص أيا كانت وظيفته أو درَجته، وإن كان ذلك كذلك ستعود فورا إلى العمل

شكرته وقمت منصرفا. قام معى ووصلنى إلى الباب وصافحنى بحرارة وهو يشكرنى على همتى وإخلاصى.

ثم لم يحدث أى شئ.

ظللت بالمنزل لفترة، كانت الوحيدة فى الأزمنة الأخيرة التى لم أكن أرتحل فيها يوميا عبر أرجاء المدينة، أنتظر. وكنت قد نقلت نسخة من الديجر على كمبيوتر المنزل لأنى أدمنتها. فكنت أقوم فى الصباح فى السابعة والنصف كالمعتاد، اتناول إفطارى ثم أتوجه إلى الديجر وأظل ألعب حتى الثالثة بعد الظهر حيث أعود، نفسيا، للمنزل. أثناء هذه الفترة كنت أغلق الباب على نفسى فى غرفتى منكبا على الكمبيوتر ألعب. وكانت زوجتى قد تأكد شعورها بأنى فقدت عقلى كله أو على الأقل جزءاً هاماً منه، فكانت تتركنى على أساس أنى أعود شخصا طبيعيا اعتبارا من الثالثة. لم يتصل بى أحد. ولم يحدث أى شئ لاهنا ولا فى أى مكان آخر.

ولم أكن أصدق.

لم أستطع أن أصدق.

هل الدكتور بدير ضالع هو الآخر فى المؤامرة؟

وبعد تردد وحيرة، وبعد مشاورات مع زوجتى التى قصصت عليها القصة بالكامل، ومشاورات مع المحامى، اتصلت باحدى المجلات شبه المعارضة (لم أجسر على الاتصال بإحدى صحف المعارضة، كان محرروها يسببون لى حساسية)، فأرسلوا لى صحفية شابة اسمها سحر عيسى. كانت الساعة الرابعة ومازال الطريق إلى الهرم طويلا. عند الأريزونا توقف التاكسى مرة أخرى فى طابور طويل للسيارات. باق نصف ساعة فقط على موعدى مع السيد مينا. اللعنة على هذا الزحام.

* * *

حرك الكاتب عينيه فى إرهاق. مشى قليلا فى الصالة الفسيحة المطفأة الأنوار. كانت عظام جسمه تقرقع وتفرط بعض الجير وهو يسير على أرض المتحف. نظر إلى البرديات المتراصة فى الصالة وإلى التحف الصغيرة الموضوعة بعناية فرنسية فى صناديقها الزجاجية. ماالذى أتى بهذه البرديات إلى هنا؟ ومن الذى مزقها هكذا؟ ومن الذى وضعها بهذا الترتيب الغريب غير المفهوم؟ وأين بقيتها؟ هذا كتاب الموتى ولاريب ولكن أين بقيته؟ كيف مكثت كل هذه المدة فى هذا المكان؟ وهؤلاء الناس من كل صنف وشكل ولون يأتون وينظرون إلىّ ويلفون حولى. أنا الكاتب المصرى أوضع هكذا كتمثال فى متحف كتحفة للزوار؟ أنا كاتب الفرعون وعقله المفكر ألقى آلاف السنين فى هذه الأراضى الغريبة تلقفنى يد إلى يد؟ من اللص المصرى الأول فى الجبانة الملكية إلى الجريجى الذى عبر بى البحر إلى الفرنسى العنجهى الذى استولى علىّ وأدخلنى بلاده وأدخل بلاده فىّ؟ ماذا أفعل أنا تحت هذه السماء الداكنة الغيم؟ أين أرضى وشمسى المشرقة ونيلى الفياض؟ أين أهرامى ومعابدى ونقوشى وكتاباتى التى تملأ الوادى؟ أين حكمى وحكمتى التى تسير فى الأرض من بعدى تهدى الضال وتنير السبيل؟ أين فرعونى الإله يقف أمامى مبجلا رجاحة عقلى ومحتاجا فصاحتى وشاكرا حنكتى؟ أنا حور الكاتب المصرى الذى يكتب الفرنسيون الجهلة تحتى أنى كنت كاتبا بسيطا فى بلاط الفرعون! أنا العقل المفكر والمدير والحاكم الحقيقى لهذا الوادى بقمحه وسنابله وعمارته وبكل مافيه. أنا أحبس هكذا فى هذه الغرفة الحقيرة فى هذه المدينة الغريبة لينظر الأجانب إلىّ ويدرسونى؟ ماذا كانت باريس هذه حين كنت أسير على قدمى؟ ماباريس هذه حتى تستولى علىّ وتحبسنى فى إسارها؟ كان يسير فى غرفته فى المتحف وعظامه تقرقع والجير يتساقط منها. ظل يروح ويجيئ حتى شارف الفجر على

الدخول. كان الجير فى قدميه ينحل ويتساقط. وعند شروق الشمس كانت ساقيه قد شلتا تماما وعجز عن السير. جلس حور على الأرض ينظر إلى الباب فى حنـق. كـان هنـاك، جالسا، حانقا، فى انتظار انفتاح الباب كى يخرج. وكان كلما رأى انحلال ساقيه وعجـزه عن المشى زاد حنقه أكثر. وعندما انفتح الباب كان الحارس أول من رآه. ظنه وقع من مكانه وانتابه هلع، ولما أدرك أنه حى زاد هلعه وظن بنفسه الظنـون. ولمـا انتهـى مـن القصة المعتادة مـن الخـوف والذهـول وعـدم التصديـق والدهشـة وخلافـه، ووجـد حـور يحدثه بفرنسية مفهومـة، تعلمها بالطبع من طول مكوثه بالمتحف مثلما تعلم الإنجليزيـة من استماعه للمرشدين، أدرك أنه أمام ظاهرة فريدة.

• • •

الجوع يعصف ببطنه. اهتزاز القطار يزيد مـن شعوره بـالضعف والاحتياج إلـى لقمة تقيم أوده. القطار ينهب فى الأرض فى شرق القاهرة. عبدالعال ينظـر مـن الشباك ولايرى. مليون موضوع وسؤال فـى رأسـه لكنـه لايفكـر. المنـاظر تجـرى أمـام عينيه والأفكار تجرى فى رأسه، لكنه لايرى شيئا ولايفكر فى شئ. إلى أين يتجـه هـذا القطـار ياعبدالعال؟ إلى حلوان أم إلى المرج؟ والله لم أعد أدرى. كم مر علىَّ هنا؟ كم مر علـىَّ هناك فى الصعيد؟ قبل الجفاف أم بعده؟ كـم مـر علـىَّ فـى حلـوان، قبـل الحـرب أم الآن؟ كيف الخروج من هذا القطار؟ وفيم الخروج منه؟ وإلى أين أذهـب؟ أظلمـت الدنيـا ثانيـة أو عاشرا أو أكثر. دخل المترو فـى جسـم النفـق للمـرة المليـون وعبدالعـال اعتـاد هـذه المسألة. لكنه لايستطيع الهبوط. كل مرة أحاول فيها الخروج أجد هذه الحواجـز الحديـد

اللعينة. سيعرفون أن ليس معى تذكرة. وسيمسكونى وأروح فى سين وجيم. وانت ماتعرفش مباحث المواصلات دول ياعبدالعال، دول ولاد كلب مايعرفوش ربنا. طيب. خلينى هنا فى القطر لغاية ماربك يفرجها. لو خرجت، لابد وسأدفع ثمن التذكرة وهو كل مامعى، هذا غير البهدلة والمبيت فى الحبس. وممكن يحكموا علىَّ بغرامة أكبر من قيمة التذكرة وطبعا لن أستطيع دفعها لأنه مامعاييش. يعنى آخر المطاف فى الحبس. الله يخّرب بيتك ياشاويش يامن أدخلتنى هنا. والحل؟ نظر عبدالعال حوله لعله يجد حلا فى وجوه من حوله. لاشئ مثل الجوع فى قرص البطون. لا وألف لا، لست أنا من يمد يده ويستعطى أحدا. كان الجوع يقرص بطنه. المرأة الجالسة قبالته فرشت بؤجتها على الأرض وأخرجت سميطاً وجبنة. مرت على الركاب جميعهم ووزعت على كل الجالسين سميطة وقطعة جبن نستو. ياالله على الشهامة. وضعت السميطة فى حجره وأتبعتها بقطعة الجبن. شكرها عبدالعال بصوته الجهورى ورفع يده شاكرا. فى لقمتين كانت السميطة فى جوفه متبوعة بقطعة الجبن. وهو يمضغ الطعام، استغرب الناس الجالسين هكذا كأنهم حَجر. على حِجر كل منهم السميطة والجبن ولاشكرا ولاغيره. والله الناس بتوع مصر دول ليهم حاجات غريبة. قاعدين كده من غير حتى مايشكروا الست الطيبة دى. إلَّا مافيه واحد حتى قالها لأ مش عايز! لحظات ومرت السيدة مرة أخرى تجمع السميط والجبن. الركاب جالسون فى صمت -أيضا. والله معاها حق، دول مايستاهلوا النعمة. جاءت أمامه ووقفت. نظر إليها مبتسما وهو مازال يمضغ. ظلت واقفة تنظر إليه. ارتبك:

- متشكرين قوى ياست

- العفو يابلدينا، إيدك

- مالها إيدى؟

- إيدك ياخويا بلاش ملابطة

- مالها إيدى ياولية

- إيدك ياخويا على الربع جنيه

- ربع جنيه بتاع إيه ياست؟

- نعم؟ هو انت منهم؟ إيدك ياخويا على الربع جنيه تمن الهباب اللى طفحته. تكونش فاكرنى فاتحاه سبيل ولا إيه؟

انتهى الموضوع. فهم عبدالعال مرة واحدة. وبدون كلمة أخرج من سيالته كيس النقود وعد لها خمسة شلنات جديدة خطفتها ومضت تلم بقية السميط. طعم السميط مرر فى حلقه. يانهارك أسود ياعبدالعال. كده كملت وبقت خل. وضع عبدالعال رأسه بين كفيه والقطار يمضى. محطات خلف محطات. لاأمل الآن فى الخروج. وإلى أين أخرج. لاعمل، ولامأوى فى هذه المدينة الكافرة، ولاحتى ثمن تذكرة الدرجة الثالثة للعودة إلى البلد. سأظل فى هذا القطار إلى الأبد.

* * *

أنا الكاتب المصرى. أنا حور. وقصتى معقدة وصعبة التصديق. ولكن ينبغى علىّ أن أقصها وأن أنقلها إلى كل من يعرف القراءة فى وادى النيل. هذا كل مابقى لى من أمل. وأنا أكتب فى أوراقى الصغيرة، على مكتبى الخشب الصغير فى حجرتى الضئيلة بباريس. من النافذة الكبيرة (أكبر شئ فى هذه الغرفة) تمتد أمامى أشجار

ضخمة بطول بولفار مونبارناس وحتى حديقة اللوكسمبورج التى تبدو مبانيها فى الأفق. الغرفة لاتكاد تتسع إلا لسرير وهذا المكتب وحوض صغير. دورة المياه فى أسفل المبنى. هذه مايسمونه الفرنسيون بغرفة الخادمة. السقف فوق رأسى تماما هرميا، وأعرف أنه مطلى من الخارج بأسود غامق. وأنا أكتب بالفرنسية، اللغة الوحيدة التى صرت أعرفها غير الهيروغليفية. وسأعطى هذه الأوراق فى المساء لشاب مصرى حديث اسمه فخرالدين ليترجمها إلى العربية. هذه هى الطريقة الوحيدة التى أستطيع توصيل قصتى بها إلى القارئ المصرى الحديث. وأنا أعتذر مقدما عن سوء اللغة أو غرابتها وأعتذر عن عدم قدرتى على الكتابة باللغة التى صار المصريون يستخدمونها الآن، لأنى لاأعرفها ولم أعرفها قط ولم أسمعها سوى مرات قلائل من القلة الناطقة بالعربية التى كانت تزور المتحف أيام احتجازى هناك. أنا آسف حقيقة. آسف لعدم قدرتى على استخدامها وآسف لعدم قدرتك على فهم الهيروغليفية التى هى أو التى كانت لغتك. حتى هذا الشاب المثقف فخرالدين طالب الدكتوراه بالسربون لايعرفها. فى البداية صعقت لما علمت ذلك ثم صارت الصعقة ذهولاً ثم دهشة ثم استغرابا ثم صارت الآن أسفا ومرارة أبتلعها كلما هممت بالكلام. لاأعرف سوى لغتين: لغة قديمة صارت تحفة ولافائدة عملية فيها، ولغة أخرى أجنبية عنى وعنك وهى الوحيدة أداة الاتصال بيننا ولاتفهمها أنت. ومن ثم صار لزاما علىَّ أنا الكاتب أن أجد وسيطا ليترجم لك أنت الذى كنت تقرأ حكمتى وتبحث عنها فى كل موضع لتتبعها، ليترجم لك أنت كلماتى كى تكون مفهومة عندك! ماالنفع فىّ؟ أى انحطاط وصل إليه حال الدنيا وأنا معه! وهكذا تتطور قصتى منذ خروجى من أسرى الفرنسى. أقصد من أسرى فى المتحف الفرنسى. ليس أمامى الكثير من الوقت لأكتب لك القصة فسيتعين علىَّ أن أكون على سفر ابتداء

من هذه الليلة، والإله وحده يعلم متى تنتهى رحلتى إن كانت ستنتهى. لذا سيجب علىَّ أن أحكى كل شئ الليلة وقبل أن أرحل وتختفى القصة تماما إذا اختفيت. أنا حور الكاتب المصرى، أفقت من غيبوبة طويلة قضيتها فى اللوفر أسير حوائطه ولوحاته. ولما أفقت قررت أن أخرج لكن ساقى كانتا قد عجزتا عن الحركة من طول جلستى القرفصاء. وبمعاونة الحارس الفرنسى فى المتحف خرجت وهربت. لم أكن أعرف أين أذهب ولم أكن أفهم شيئا من هذه الحياة الحديثة المعقدة. ووجدت من المستحيل علىَّ أن أخطو خطوة واحدة دون معونة. ليس فقط لغرابة ملابسى ولا لعدم ملاءمتها لهذا الجو الغريب البرودة، وإنما لمليون ألف سبب آخر أبسطها لعدم امتلاكى للنقود التى تسير الحياة كلها هنا. فى بداية الأمر حاولت أن أقنع محدثى بأنى أنا الكاتب المصرى وبمكانتى فى أرجاء الوادى ولكن كل ذلك لم يكن له أى نفع مع هؤلاء الناس. أبسط الأسباب عجزى عن التعامل مع الأشياء: كيف أحصل على الطعام، كيف أذهب من مكان لآخر فى هذه العربات الحديدية فائقة السرعة، كيف أجد ماأريد، كيف أجد الأماكن...كل شئ. كان الاعتماد على شخص من هنا أمرا لاغناء عنه. وبالطبع كان الحارس الذى ساعدنى على الهرب هو المرشح الأمثل لهذه المهمة.

ولنقف قليلا عند هذا الحارس. اسمه جان مثل آلاف أخر. واسم عائلته أعقد من أن أتذكره: روبينوه أو ريينوه أو روبلوه، باختصار شئ من هذا القبيل. لايهم اسم عائلته، لأننى سأدعوه دائما جان. لماذا أخرجنى جان من المتحف؟ سألت نفسى هذا السؤال ثم سألته. وأعتقد أنه فى البداية فوجئ بحقيقة عودتى للحياة وكان يظننى مجرد حجر ينقلونى من مكان لمكان دون إرادة منى. قليل من الخوف، وقليل من الإعجاب بقدرتى على الحياة ومقاومة كل هذا الموت الطويل، وقليل من الرغبة فى المغامرة

وكسر الملل فى حياته (علمت منه أنه يعمل فى وظيفته هذه نفس الساعات كل مطلع شمس من قبل أن ينجب ابنه الذى صار الآن رجلا!)، وكثير من الرغبة فى استطلاع هذا الكائن الغريب والمشاركة فى صنع هذا الحدث الخارق. أراد أن يدخل التاريخ ويخلد اسمه باعتباره ذلك الذى ساعدنى على العودة للحياة. مسكين، لم يكن يعلم أنى سأنسى اسمه فور سماعى له وسيدخل فى ألف مليون اسم فرنسى أسمعه كل يوم منذ جئت إلى هنا. ربما أراد أيضا، الإله وحده يعلم الحقيقة، أن ينتفع من ورائى إذا ظهر لى نفع، إذا سأل الفرعون عنى مثلا فيكافئه. على العموم هذا ماوعدته به وأنا لوغدى الحافظ.

إذا أخرجنى جان الفرنسى من المتحف الفرنسى، ثم دلنى على مكان أختبئ فيه. غرفة صغيرة جلست بداخلها وأغلقها علىّ حتى جاءت صديقة له شعرها أصفر كالقمح وحسنة الملمح وكان معها ملابس فرنسية فأعطانى إياها، خلعت ملابسى البسيطة وارتديت هذه الملابس الغريبة عنى -مضطرا- وخرجت من الغرفة. قادتنى صديقته الشقراء وفى دقائق كنت خارج المتحف. ثم بدأت سلسلة من الأحداث التى لم أفهمها وقتئذ والتى تركتنى فاغر الفاه من الدهشه. وضعتنى صديقته على مقعد حديدى بعجلات ثم قادتنى إلى إحدى العربات الحديدية التى تجرى، وبعد وقت وصلنا إلى منزلهم. كيف أشرح لك وقع دخول هذه المبانى الغريبة علىّ أول مرة؟ كأننى أدخل مقبرة فى هرم. الآن اعتدت على هذه الأشياء. فى المساء عاد جان وأحسست ببعض الطمأنينة لما رأيته. ظللت عدة ليال فى منزله ثم أتى لى بطبيب صديق له. وظل هذا الطبيب يجرى علىّ فحوصا لما يزيد عن ثلاثين ليلة. كان جان فى هذه الأثناء يشرح لى كل شئ مما يدور حولى، وبدأ يأخذنى فى جولات خارج المنزل كل يوم كى أرى بعينى ما يشرحه

لـى: المواصلات السـريعة العامـه، السـيارات، الطـائرات، السـفن السـريعة. الاتصـــالات اللاسلكيـة: التليفـون، التليفزيـون، الفـاكس. الأجهـزة المنزليـة، الشـوارع الأسـفلتية، القمامـة، جـامعو القمامـة، الأنفـاق، الكبـارى، العمـارات السكنية، المبـانى الحكوميـة، الشركات، المصـانع، العمـال، المرتبـات والأجـرة، الانتخابـات، النقابـات والأحـزاب، الجامعات والمدارس الضخمة، أماكن التسلية واللهو الجماعى، المقاهى، البارات، دور السينما، المسارح، المراقص، دور البغاء. الوقت، الساعة، والسنون المتساوية. البنـاء والتشييد بالآلات والروافع، الميكانيكـا، دور الاستشـفاء العامـة، الطبيب الخــاص لأى شخص من العامة. وفوق كل ذلك، ماقضَّ مضجعـى ليـالى عدة، الكتابـة الآلية بكميـات كبيرة، الآلات الكاتبة، والآلات الطابعة، الكتب، والمجـلات، والصحـف اليومية المكدسه بكميات رهيبة على الأرصفة كل صباح، الأسـلحة، السجن، المقـابر الصغيرة، جـوازات السـفر، الكهربـاء، المصـابيح فـى الشـوارع، محـال البيـع، البيـع والشـراء والسـوق، الفرعـون الفرنسـى ووزراءه، المـرور، النقـود، ثـم النقـود، ثـم دائمـا النقـود، الكنيسـة، المسجد، المعبد اليهودى، اليوجا، المسابقات الرياضية، كرة القدم، الملابس، الموسـيقى الجماعيـة، ثـم الموسـيقى التركيبيـة، ثـم الموسـيقى الآليـة، الكمبيوتـر، التصويـر بالفونوغرافيا، تصوير الورق الفورى، الرجل يعيش وحيدا، المـرأة تعيش وحيدة، بـلا أهل، السفر، الشحاذين ومن لامأوى لهم، البنوك، مرة أخـرى النقـود. كـان جـان معلمـا جيدا. وكان صديقه طبيبا جيدا وبدأت أسـترد الكثـير مـن عـافيتى. غـير أن سـاقى ظلتـا مشلولتين. وفى نهايـة المطـاف قرر الطبيب أن يـأخذنى إلـى إحـدى دور الاستشـفاء. واخترعوا لـى اسـما مصريـا يشـبه سـحنتى وأدخلونـى المستشـفى بـالفعل. كـان العـلاج معقدا، وعجزت عن فهم مدلول المصطلحات الطبية، لكن جـان كـان دائمـا معـى وأيضـا

الطبيب صديقه كان يأتى من وقت إلى آخر. وبدأت فى التحسن، وبعد حوالى شهر بدأت فى السير عليهما. إلا أنه كان يتعين علىّ الذهاب للمستشفى مرة كل شهر لآخذ حقنة معينة حتى لاتتدهور حالتى. كان كلام الطبيب المعالج فى المستشفى واضحا: إذا لم تأت لمرة واحدة فقط فهناك خطر على حياتك. ماذا يعرف هو عن الحياة أو عن الموت؟ أنا حور الكاتب المصرى قاهر الحياة وقاهر الموت وقاهر الأزمنة. تعبت من الكتابة. الساعة تقترب الآن من السادسة مساء ويجب علىّ أن أذهب إلى المطعم المجاور ــــون العشاء.

الساعة التاسعة. تناولت الطعام فى لاروتوند، وهو مطعم صغير فى تقاطع بولفار مونبارناس مع بولفار بوروريال، وتعودت منذ فترة أن أتناول فيه وجبة العشاء. فى البداية حاولت أن أعد الطعام لنفسى هنا، لكنى أدركت سريعا أنى لن أستطيع التعامل مع الطعام الفرنسى مثلما يباع فى الدكاكين فآثرت المطاعم. جان، بعد فترة من الوقت، ستة شهور بالزمن الفرنسي، قال إنه لن يستطيع إيوائى أكثر من ذلك لأن صديقته، التى كانت تعمل فى مدينة ليل ستنتقل إلى باريس وستأتى للعيش معه، وصادف ذلك هوى فى نفسى، إذ كنت أود أن أرحل عائدا إلى بلادى ولكنى كنت أريد أن أتمكن أولا من الحياة هنا كى أستطيع مواجهة الرحلة وحدى. فأخبرته برغبتى. كانت أمامنا طريقتان: الأولى أن أرفع قضية أمام القاضى الفرنسى وأطلب فيه اسقاط أى حقوق للمتحف الفرنسى على شخصى باعتبارى رجلاً حراً عاقلاً مكتمل الشخصية، والثانية أن أهرب عبر الحدود إلى أى بلد مجاورة (أسبانيا أو إيطاليا) وهناك أذهب إلى سفير الفرعون المصرى المقيم وأطلب منه وثيقة تسمح لى بالسفر. وكان رأى جان أن نتبع

الحل الأول. ولكن بالسؤال لدى رجال القانون الفرنسى اتضح استحالة ذلك الحل. فبمجرد ظهورى سيتعين على القاضى تسليمى للمتحف والحكم بحبس جان وذلك قبل النظر فى الدعوى المرفوعة منى. وكان ذلك وحده كفيلا بجعل هذا الطريق غير نافع لإحقاق حقى. بالإضافة إلى ذلك، فإن القانون الفرنسى كان سيقضى لامحالة -وفقا لنصوصه الواضحة- بأحقية متحف اللوفر فى احتجازى لديه وبجرم الفعل الذى اقترفته جان بمساعدتى على الهرب. كان ذلك هو نص القانون ولم يكن أمام أى قاض فرنسى مهما بلغ إحساسه بعدالة قضيتى أن ينصفنى على حساب خرق القانون.

كان القاضى الفرنسى عاجزا عن إحقاق حقى ولم يتبق أمامى سوى الحل الثانى.

كيف يمكن تدبير عملية الهرب؟ الحل الأول: الهرب إلى إيطاليا. الحدود بين مقاطعة الألب البحرية وبين الشمال الإيطالى أطول من فرع النيل من البحر حتى الجيزة. وكلها غابات ومزارع وقرى. يكفى المسير ليلا من مدينة اسمها منتون وفى الصباح أكون فى أولى المدن الإيطالية: اسمها فينتميجليا. الحل الثانى إلى أسبانيا عن طريق مدينة بوه الفرنسية، ولكن المنطقة جبلية ووعرة وبها سكان يكرهون الأسبان والفرنسيين معا ويقيمون القلاقل من وقت لآخر. قال لى ذلك جان وصديقه. ثم قررا أنهما سيحتاجان لمعونة أحد من سكان المنطقة ويستحسن من له خبرة بالتهريب. وفى بضعة أيام كان الطبيب قد توصل إلى شخص تونسى اسمه بنساله (المقصود "بن صالح"، المترجم) يعمل سائقا على سيارة لنقل المواد الغذائية بين مدينة نيس ومدينة جنوة. واتفقوا معه على أن يلتقطنى عند مدخل منتون وأن ينزلنى فى فينتمجليا. من هناك سيتسلمنى شخص ايطالى اسمه جرامشى ويقودنى إلى روما حيث سيسلمنى إلى

سفير الفرعون. رجال الحدود لن ينتبهوا لوجودى فى صندوق السيارة الكبيرة وسط المواد الغذائية. عادة فإنهم لايفتشون السيارات الخارجة من فرنسا بل تلك الداخلة لأنها هى التى تحمل الهاربين المتسللين للأراضى الفرنسية. قلت لنفسى لماذا يتسلل أيا من كان إلى بلاد غريبة كهذه؟ وحددوا الموعد غدا صباحا. كان ذلك من شهر تقريبا. وقد اتفقوا على ذلك الموعد لأن بنساله يذهب فى رحلته هذه مرة أسبوعيا وكان يجب أن يتركوا له فترة كافية لترتيب الأمر مع جرامشى ثم الرد على جان ثم الرد على جرامشى بالاتفاق النهائى. كان جان هو الذى سيتولى تحمل كل النقود اللازمة لذلك، وبالرغم من أنى أكدت على وعدى بمكافأته مكافأة فرعونية تليق بمجهوده وبرفعة الفرعون ورجاله إلا أنى شعرت بأنى صغير جدا وأنا واقف هكذا لاحول لى ولا قوة وهم (جان وصديقه وبنساله وجرامشى) يرتبون كل مايتعلق بى دون أن يكون لى رأى ولا قرار. لا، لست أنا من يقف هذا الموقف. لكنى لم يكن لدىَّ خيار آخر. فبلعت غصتى وسكت. فى خلال هذه الفترة كان علىَّ مغادرة منزل جان الذى وجد لى هذه الغرفة العجيبة وأعطانى رزمة من النقود لأشترى بها السلع والخدمات التى أحتاجها.

الساعة الآن العاشرة. فى الواحدة صباحا سيمر علىَّ جان ليأخذنى إلى الجنوب الفرنسى، إلى منتون لأسافر. الليلة تبدأ رحلتى إلى بلادى. وداعا يأيها الأسر الفرنسى. وداعا يأيتها الغربة الكئيبة. أنا لن أصبح غريبا بعد الآن. سأكون أنا من فى وطنه وسيكون الآخرون هم الغرباء. هم الأجانب. هم الأقل. هم المندهشون. هم غير الفاهمين. هم الذين أشرح لهم، وأوضح لهم وأعلمهم من حكمتى. هم الذين لايأخذون القرارات وهم الذين لاخيار لهم. هم الذين يسألون عن قوانيننا وعما يسمح لهم به

القاضى المصرى. هم الذين يقرأون مايكتبه الكاتب المصرى الذى هو أنا. أنا المدلمور، المطموس، المغموط حقى، المقهور، المنسى. سأعود أنا القاعدة مرة أخرى وهم الاستثناء. لن أرى امتعاضة وجه موظفة التذاكر الفرنسية فى المترو وهى تحاول فهم فرنسيتى ذات اللكنة المصرية، ولن أرى تعالي النادل الفرنسى فى الروتوند وهو يستوضح منى طلباتى، ولن أرى حدة أنف مديرة المكتبة العنصرية وهى تصر على أن أبرز لها بطاقة تحقيق شخصيتى. ولن أرى جان الذى يأخذ نفسه على أنه معلمى ومرشدى إلا لأرد له جميله المحدود والذى كان أبسط عامل بناء مصرى سيقدمه لو كان فى مكانه. أنا عائد إلى بلدى، إلى وطنى، إلى الأرض التى أنا فيها سيد وصاحب. وداعا يأيتها المدينة الباردة الداكنة السماء. وداعا للعربات الحديدية وللنقود السيدة الحاكمة وللتليفزيون. أنا عائد إلى الوادى والدلتا، إلى نخلى والى قمرى، إلى فناء منزلى وعصافيره، إلى دجاجات زوجتى وحمامها، إلى أرض أبى ومثواه. إلى إلهى الفرعون وكرمه وطيبته، إلى مكانى ومكانتى. الليلة أبدأ رحلتى، أو أتم الرحلة التى أجبرنى اللصوص على خوضها.

سأسلم هذه الأوراق إلى فخرالدين الذى سيمر علىّ بعد ساعة. سيترجمها ويرسلها إلى صديق له فى مصر لينشرها. معى عنوانه. الوداع يأيتها الغطرسة الفرنسية.

* * *

كانت فاطمة جالسة على جهاز غسل الكلى. كان الجهاز يعمل، وكان ذهنها يصفو. منذ ثلاث ليال وهى مقيمة بمستشفى السلام الدولى. الشيخ دفع كل المصاويف

وسيدفع كل المصاريف الأخرى. كانت تأكل. وكانت تأكل طعاما نظيفا. وكانت تشرب. وكانت تشرب مياها معدنية أتى بها الشيخ معه من الجزيرة العربية. ثم أعطاها ماء زمزم لتشرب منها. وغسلوا لها الكلى ثلاث مرات. في أول يوم استمرت الجلسة ١٢ ساعة حتى أزالوا كل وساخات الماضى. قال لها الطبيب إن كليتيها الآن أفضل مما كانتا عند الولادة. صحيح أنها ستحتاج إلى غسلهما كل أسبوع أو على الأكثر كل أسبوعين، لكن الشيخ وعدها أنها ستغسلهما هناك كل أسبوع وبانتظام كالساعة. نقود؟ لا، لاأحتاج إلى النقود. وفيم الحاجة إليها. كان الشيخ يعتنى بكل شئ، ويحسب حسابا لكل رغباتها من قبل أن تنطق بها، وكل ذلك ولم يمسها بعد، لم يكتب حتى عليها. وتستطيع الآن أن تخرج من المستشفى وتذهب حيثما تريد وليس له عندها أى شئ. لكنها لن تخرج. وإلى أين؟ كانوا يموتون بين أيديها. وكانوا لايجدون القدرة حتى على حملهم لمقابر الرفاعى. كانوا يدفنونهم فى الغرفة الأخرى. ثم مات هو، ودفنته بيديها مع الأولاد. لا، لن أخرج من هنا إلا مع الشيخ. أكبر منى؟ بأربعين سنة على الأقل. أنا لاأعرف ماذا يريد منى. ولا أظن أن فيه عافية للزواج وللفراش. يريدنى خادمة إذن لآخر أيامه. ليكن مايريد. أنا خادمته وعبدته وملك يمينه. أنا معه وسأتبعه أينما يشاء. أى مكان أفضل من هنا. توقف الجهاز وظلت فاطمة وحدها فى الغرفة المطلة على مجرى النيل. كانت ترقب مجرى النيل الفارغ. الأرض خشنة مشققة. ومن الجانب الآخر بدت حقول المنيب قاحلة صفراء. كان الخراب يحلق فوق الأرض كلها. أغمضت عينيها وغفلت قليلا. عندما أفاقت كان الطبيب يفك توصيلات الجهاز، ثم دفعتها الممرضة إلى غرفتها على فراشها المتحرك. دقائق وجاءت أم سيد مبتسمة. أعدت لها حقيبتها وأخبرتها أن

الشيخ منتظر تحت فى السيارة ومعه المأذون والشهود وكل شئ جاهز. نظرت إليها بجانب عينيها وقالت فى مكر مفضوح:

- إحنا لسه على البر يابت يافاطمة، فكرى تانى قبل ما تقولى آى

- خلاص فكرت ياخالة

- وموافقة؟

- موافقة ياخالة، بالعشرة

- لاترجعى تقولى خالتى أم سيد غصبت علىَّ؟

هزت فاطمة رأسها بالنفى وقامت من فراشها. كانت أم سيد قد جمعت حاجياتها الخفيفة فى حقيبة يد صغيرة وحملتها معها

- طب ياللا بينا لحسن الناس يستعوقونا

مضت فاطمة خارجة من الغرفة. كان ذهنها صافيا ولكنها كانت تشعر ببعض الوهن. هبطت المرأتان فى المصعد إلى الدور الأرضى. خرجتا من المصعد. تقدم السائق وألبسهما قناعين ثم مضوا جميعا خارج مبنى المستشفى. دخلوا إلى السيارة على عجل وانطلقت بهم على كورنيش المعادى. كانت عينا فاطمة العسليتان تنظران من خلال الزجاج البنى الغامق إلى ملامح الكورنيش المهجور والسيارة تقطعه فى اتجاه التحرير. مرت من أمام مصرالقديمة ومساكنها. صبى نصف عار يلعب حول طلمبة ماء منسية وجافة كالحطب. أغمضت عينيها وغفلت قليلا. عندما أفاقت كانت السيارة تدخل شارع الحجاز بمصرالجديدة. مرت السيارة أمام القصر الفرعونى وتحصيناته ونوافيره التى عبثا تدارى العفن. مرت السيارة إلى محطة كلية البنات ثم توقفت. نزل السائق وعاد بعد دقائق برجل آخر.

- هذا هو المأذون

قالت أم سيد. فتح المأذون أوراقه داخل السيارة. بدأت السيارة فى التحرك وبدأ هو فى توجيه الأسئلة التقليدية إلى العريس والى العروس والى الشهود. وثق الشيخ بخاتمه على وثيقة الزواج ثم وقّعت فاطمة ثم وقّع الشاهدان. عندما وصلت السيارة أمام نادى الضباط كان القران قد عقد وأصبحت فاطمة زوجة الشيخ. توقفت السيارة وهبط المأذون والشهود وأم سيد والسائق. غابوا قليلا بالخارج ثم رأت فاطمة وجه أم سيد من خلف قناعها وهى تلوح لها من خلف الزجاج. دخل السائق إلى السيارة وانطلق فى طريق المطار. كان الطريق خاليا من السيارات ومن المارة ومن كل شئ وبدا لفاطمة أن القاهرة صارت مدينة أشباح أو مقبرة جماعية. وصلت السيارة إلى المطار الجديد سريعا. أخذ السائق وثائق الزواج ونزل من السيارة وغاب قليلا فى وحدة جوازات المطار التى أنشأتها الداخلية تيسيرا على المسافرين بعد انهيار مجمع التحرير الذى تحللت جدرانه من تأثير العفن السائل فيه. بعد خمس دقائق عاد ومعه جوازسفر جديد لفاطمة زوجة الشيخ. تحركت السيارة باتجاه صالة السفر وتوقفت أمام باب الدخول. هبط السائق سريعا وفتح الباب للشيخ الذى نزل جريا إلى داخل المطار. استدار السائق وفتح الباب لفاطمة التى كانت لاتزال ترتدى قناعها. نزلت ببطء. نظرت حولها وخطت نحو باب الدخول. فتح العسكرى لها الباب فخطت داخلة. أشار لها الشيخ بيده فتبعته. أشار لها السائق فانتبهت إلى أنها لاتزال تضع قناعها. خلعته وأعطته له. كان السائق يحمل جوازات السفر فى يد ويدفع عربة الحقائب بيده الأخرى. قالت فاطمة فى وهن:

- هو احنا حنسافر على طول كده؟

– حالا

– طيب دا انا حتى ماعنديش هدوم

– مش ح تحتاجى هدوم من هنا. الشيخ ح يجيب لك مـن هنـاك هـدوم مـن اللـى الستات بتلبسها هناك

صمتت فاطمة ومضت صامتة. جلس الشيخ فجلسـت جـواره. كـان السـائق يبـدو من حين لآخر وهو يختم ورقة أو يزن حقيبة أو يشير اليهما. جاء بعد لحظات وقال:

– كله تمام

قادهمـا إلـى شـباك الجـوازات ومضـى معهمـا داخـلا. ختـم الضـابط جوازيهمـا وأعطاهما للسائق الذى اصطحبهما للداخل. جلسوا فـى اسـتراحة ركـاب الدرجـة الأولـى وجئ لهم بشاى وكعك. مدت فاطمة يدها بتلقائية وتناولت الكعك والشاى. رفض الشـيخ تناول أى شئ. ظلوا جالسين فى صمت. كـان ىمطـار خاليـا أو شبه خـال. جـاء صـوت المذيعة تعلن عن قيام طائرتهم. انتصب السائق واقفا ثـم الشـيخ. انتبهت فاطمـة علـى حركتهما فقامت. مضوا جميعا نحو الباب المفضى للطائرة. فى نهاية الممر كانت هنـاك ضوضاء وأصوات ناس كثيرة. نظرت فاطمة فرأت رجلا أبيض الوجـه، قصـير القامـة، بشوشا، واقفا يتحدث أمام ميكروفونات مجموعة من الصحفيين المتحلقين حولـه. كـان يصمت أحيانا ليستمع إلى سؤال أحدهم أو إحداهن ثم يرد بعد ذلك. كان السائق والشيخ يتقدمان فى الممر وفاطمة تسير وراءهما. كـانت قـد رأت هـذا الوجـه مـن قبـل لاتـدرى أين. كانت تسير وراءهما وعيناهـا لاتفارقـان هـذا الوجـه الـذى تشـبه عليـه. أكيـد أحـد المسئولين الذين رأتهم فى التليفزيون. كان وجهه أبيضا، وطيبا، وتبعث ابتسامته علـى الثقة. قصير القامـة، ممتلـئ بعض الشـئ. كـان فـى منتصـف الأربعينـات. كـان يتحـدث

بطلاقة وبصوت هادئ. مرت فاطمة خلف السائق والشيخ بجوار الرجل. كانت عيناها لاتزالان مسلطتين عليه، تحاول أن تتذكر أين رأته. دارت عينا الرجل والتقتا بعينيها. صمت لحظة فالتفت الصحفيون جميعهم ناحيتها. قطع نظرته وواصل الحديث. مضت فاطمة خلف السائق والشيخ. تفتيش أخير عند باب الطائرة. ممنوع اصطحاب الأقنعة، سلم السائق على الشيخ وقبل يده. رفع يده بالتحية لفاطمة وهى تدلف وراء الشيخ داخل الطائرة.

* * *

رأى ضوءا فى الأفق. أغمض عينيه فى يأس. هى خرافات ماقبل الموت أو هو الموت نفسه. كان الضوء واضحا حتى وهو مغلق العينين. من خلف جفنيه كان كل شيء أسود غامقا ماعدا بقعة فى أعلى الجفن سوادها محمرا. فتح عينيه ونظر ثانية: كان ضوءا ولاريب. هل هو ضوء ملاك الموت الآتى سعيا فى هذه الصحراء الثلجية ليقطف مابقى من روحى؟ أم ضوء مشاعل بقية رفاق السلاح آتين للبحث عنى؟ أم ضوء الطائرات أم الحلم أم السراب أم انفجار عينى أنا؟ كانت نقطة من الضوء، حمراء فى آخر الصحراء. النقطة تتحرك ببطء على خط الأفق، تعلو وتهبط. تكبر وتقترب. كانت نارا فى الأفق. أهى معركة أخرى؟ أم قذيفة الأعداء فوق معسكر فرقة أخرى؟ أم أضواء احتفال العدو بالنصر السريع الخاطف؟ كانت نقطة الضوء تسير. كانت مشعلا فى يد أو أكثر. كانت تسير بحذاء خط الأفق. لعلهم جنود العدو. لعلهم ما علهم أن يكونوا لكن أكيد أن معه ماء وطعاماً. هب رزق واقفا. نظر إلى ساقيه، نظر إلى نفسه واقفا ولم يصدق عينيه. ليكن مايكون، لعلنى أحلم، فليكن. حرك قدمه فى اتجاه الضوء

فتحركت. سار قليلا ثم أخذ يجرى. أخذ يصيح على حاملى النـار. كـانت السـماء سـوداء والأرض. وكـان رزق يجـرى بعـرض صحـراء سـيناء فـى اتجـاه الضـوء الـذى لايعـرف مصدره. كان يجرى والريح ترتطم بـه. لايشعر بساقيه المسلمتين إيـاه لـلريح. ولايـرى سوى نقطة الضوء فى آخر الأرض.

* * *

دارت محركات الطائرة. أسند الدكتور هاشم محيى الدين رأسه لزجـاج النـافذة وأخذ يرقب مقدمة الجناح. أسندت فاطمة رأسـها إلـى الزجـاج وهـى مغمضـة العينيـن. سيحملنى هذا الجناح من هنا. ربما للأبد. ربما يتحقـق الحلـم ويسـمح لـى بـالفرار مـرة واحدة وللأبد من هذا الجحيم. كان الدكتور يفكر: كم مرة ركبت فوق هذا الجنـاح؟ أكـثر من أن يستطيع أى شخص أن يعد. مديـر مكتبـى، بالاسـتعانة بموظفـى الشـئون الماليـة الذين يصرفون البدلات قال لى أن معدل سفرى هو مائتى يوم بالسنة. كان كل الـوزراء يحسدوننى على هذه الأيام التى أقضيها بالخـارج مسـافرا. هـم جميعـا يسـافرون، ولكـن لاأحد يسافر مثلى. لاأحد منهم وصل إلى أكـثر مـن مائـة يـوم باسـتثناء رئيـس مجلـس إدارة شركة التلوث الذى يقضى ثلاثمائة يوم بالخارج. الذى لايعرفه هؤلاء الجهلـة هـو أن السفر فقد متعته ومعنـاه معـى. مائتـا يـوم بالسـنة ولا أظل ببقعـة واحـدة أكـثر مـن يومين أو ثلاثة على الأكثر. أى متعة فى هذا؟ حتى الاتجاه فقدته ولم أعد أعرف هل أنا ذاهب أم عائد. من مطار إلى مطار ومن فندق إلى فندق وهكـذا. حقيبتـى صـارت الشـئ

الوحيد الملازم لى. أكثر من زوجتى وأكثر من مدير مكتبى الملتصق بى كالطاعون. عشرون عاما من الوزارة ومن السفر.

فى البداية لم أكن أسافر كثيرا هكذا. كنت أحب البقاء أكثر فى الوزارة لتسيير أمورها ومراقبة تنفيذ الإصلاحات التى أدخلها، وللمواظبة على حضور اجتماعات مجلس الوزراء والذهاب إلى مجلس الشعب للخطابة فى النواب النائمين والغائبين والمغيبين. كنت أحب البقاء وتفويض مساعدى للسفر وحمل الرسائل منى أو بدلا عنى. كان ذلك ديمقراطيا أكثر وحديثا أكثر. وكنت أحب أن أكون موجودا حين يطلبنى الفرعون. ليس ذلك عن سذاجة أو طيبة قلب وإنما لأنى كنت أعرف أن فور غيابى سيقفز عشرون شخصا للحلول محلى فى عملى والفتى للفرعون فى شئون وزارتى. وحين أعود أفاجأ بقرارات اتخذها هو دون معرفتى وتطبق علىّ وهى فى معظمها قرارات خاطئة او على الأقل غير حكيمة. كان أول هؤلاء القافزين طبعا وزير التليفزيون والذى احترف مهنة الكلام منذ أصبح يتولى شخصيا ملء ساعات الإرسال بأحاديثه وأفكاره. وغيره كثيرون، حتى مساعدى أنا شخصيا ينتهزون الفرصة لطلب مقابلة الفرعون والفتى له. ولذا كنت أفضل البقاء وإرسالهم هم فى المهمات. ولم يكن يجروء أى منهم على مثل ذلك وأنا موجود. كانت علاقتى بالفرعون ممتازة. كنت جديدا فى الوزارة وكنت حييا وبريئا مثل الفتاة المخطوبة لأول مرة. وكنت أكلم الفرعون بأدب شديد وبألفاظ مختارة وأبذل مجهودا خرافيا فى توضيح رأيى والدفاع عنه وإقناعه بالأرقام والمستندات. كنت أحضر مقابلتى معه من قبلها بساعات أغلق علىّ مكتبى فيها كأنى ذاهب لامتحان. أنا أستاذ الجامعة المرموق الذى يهز اسمى نصف جامعات العالم المتحضر، كنت أعود طالبا يجهز امتحاناته. مع الوقت، لم أعد مخطوبة

بل تزوجت الفرعون. أو بالأدق، تزوجنى الفرعون. الأدب فى الحديث لم يفارقنى، والتمسك باقناعه لم يفارقنى، وإلا كانت وظيفتى قد فارقتنى من زمن. ولكن الذى فارقنى هو هذه اللهفة، هذا الحماس، والتصديق فى أن من الممكن تغيير أى شئ أو عمل أى فرق. مع سنوات العمل الطويلة، ومع ماكنت أراه أمامى فى أعلى مستوى كان يمكن أن يخطر على بالى، كنت أتأكد من أن كل شئ سيأخذ طريقه المحتوم. لم يكن من الممكن ألا يحدث ماحدث، لأن كل ماحدث لم يكن صدفة وإنما كان له مليون سبب موضوعى أدى إليه. نظريا، كانت هناك حلول أخرى ممكنة. ولكن عمليا لم يكن هناك أى فرصة لأن تنفذ هذه الحلول لأن ولأن ولأن. استغرق الأمر منى سبع سنوات كى أتأكد من ذلك. وفى السنة السابعة قررت أن أستريح مثل الرب.

وبدأت فى السفر. كانت علاقاتى ببقية الوزراء قد استقرت. مع تغير الوزارات، وذهاب ناس ومجئ ناس، وسقوط أسماء كانت تظن نفسها نواب الفرعون وصعود أسماء لم نكن نسمع عنها والتصاقها بالفرعون، كنت قد قررت أن أبقى بعيدا عن الشلل التى تتكون فى المجلس. كان الإنضمام لشلة له فوائده، سواء فى الحماية التى يكتسبها الوزير من بقية أعضاء الشلة والذين يبلغونه أولاً بأول بالوشايات والمقالب والخدع والمؤامرات إلى آخره، أو فى المنافع التى يتبادلونها مثل تركيب التليفونات فى غير مواعيدها وشراء الأراضى التى ستدخل كردون المدينة قبل موعدها أو أو. ولكن الحماية الأهم والمنافع الأكبر كانت تأتى من زعيم الشلة نفسه. وذلك بحكم صلته الخاصة بالفرعون وبحكم سيطرته على بقية أعضاء الشلة. ولكنى رأيت أن مضار الشلل أكبر من منافعها. ففى أول سبع سنوات كنت تقريبا عضوا فى الشلة الرئيسية المقربة من الفرعون. لكن ذلك قد جعلنى هدفا دائما لمؤامرات ووشايات الشلة الأخرى،

ويعلم الله أنها كانت كوارث. كذلك فإن سقوط زعيم الشلة كاد أن يودى بى خارج الوزارة. لولا أن علاقتى بالفرعون كانت ممتازة. ومن وقتها وأنا خارج الشلل كلها، التصق بالفرعون وحده، وأرفع إليه وحده شكواى ومسعاى. هو رئيسى وفرعونى الإله وولى نعمتى. قد يكون ذلك الكلام قاسياً، ولكن هكذا إستطعت وحدى، دون أقرانى، البقاء فى الوزارة عشرين عاما.

كان بقائى خارج الشلل قد جعل منى شخصا مسالما للجميع. لاأحد يخشى منى وإن كان لا أحد يفكر فى إيذائى حقيقة. ممكن طبعا بعض المناوشات من أجل التنافس على رضا الفرعون، ولكن لم يكن هناك خطر منى يستفز الآخرين. واستقرت صورتى كشخص محايد. حتى أنى فى بعض الأوقات كنت أقوم بالتوسط بين الشلل وتوصيل الرسائل. وأحيانا بالتحكيم بينهم لفض نزاع لا أمل فى تسويته بالقوة. كذلك استقرت صورتى كتقنوقراط، أو كما يحلو للبعض القول كموظف لدى الفرعون. كنت كبير الموظفين فى وزارتى ولم أكن وزيرا. وكان الفرعون هو الوزير الحقيقى الأول والأخير. ولكن ذلك كان الحقيقة فى كل الوزارات الأخرى. كل ماحدث أنى أدركت ذلك من البداية وتصرفت وفقا له بحيث يكون الفرعون هو متخذ القرارات الكبرى وبالتالى المسئول عنها لا أنا، فى حين كان الوزراء الآخرون يتحملون هم مسئولية قراراتهم. وهكذا ظللت وزيرا لعشرين عاما. مرت المضيفة باسمة أمام مقعد الدكتور هاشم ومالت عليه. فى يدها صينية فضية عليها مظروف أبيض مغلق.

- هذه الرسالة عاجلة لسعادتك. الطائرة ستنتظر حتى تكتب الرد. المندوب الذى أحضرها موجود بالخارج.

كانت فاطمة تسند رأسها إلى نافذة الطائرة وهى مغمضة العينين. إلى أين تحملنى هذه الطائرة؟ كانت محركات الطائرة تدور بسرعة متزايدة وفاطمة تمعن فى إغماض عينيها كأنها تفر من السفر المحتم. أمسك الدكتور هاشم بالمظروف فى يده. أخرج نظارته الطبية من جيب الجاكت الداخلى وثبتها على عينيه. نظر إلى المظروف ثم نظر من النافذة إلى مبنى المطار. هدأت الطائرة من سرعة المحركات ثم توقفت.

- لافائدة

* * *

سرى للغاية

من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية بالقاهرة

إلى وزارة الخارجية -واشنطن

- انقطعت المياه عن المدينة تماما منذ صباح الأمس وتوقفت البلدية عن تسليم مياه الشرب للمواطنين. وعند الظهيرة كانت بعض الاضطرابات قد بدأت فى الوقوع. وقامت قوات الأمن بقمعها على الفور. إلا أن السفارة علمت من مصادرها أن اضطرابات أخرى وقعت فى معسكرات الأمن نتيجة نقص المياه. ثم انتشرت الاضطرابات اليوم فى المدينة ووقعت مصادمات عنيفة بين المتظاهرين وقوات الأمن فى وسط المدينة وفى حى شبرا. ولم يتوجه الموظفون إلى أعمالهم، كما توقفت معظم الخدمات, ولايزال الموقف غير واضح.

- وجهت منظمات حقوق الإنسان الدولية والمحلية اتهامات إلى الحكومة المصرية بوقوع انتهاكات عديدة لحقوق الإنسان أثناء الاضطرابات وباستخدام عنف لايتناسب وحجم التهديد الذى قد تشكله هذه الاضطرابات، وأكدت بعضها أن الحكومة تحتجز كميات المياه المتوافرة عمدا عن معظم المناطق.

- ظهر وزير الداخلية صباح اليوم فى التليفزيون ورد على هذه الاتهامات مؤكدا " أن هذه المنظمات منظمات غير حكومية وبالتالى لاقيمة لكلامها" (!) و "أن الحكومة المصرية هى التى تعيد للإنسان كرامته". وأكد ألا صحة لما تردد من أن الفرعون وأعضاء أسرته قد غادروا البلاد.

- من المنتظر أن يظهر الفرعون هذا المساء فى التليفزيون ليوجه كلمة للشعب.

- نتابع الموقف.

تقدير السفارة:

ترى السفارة أنه من الضرورى أن تقدم حكومة الولايات المتحدة وحلفاؤها معونات مائية فورية للحفاظ على النظام والأمن. من الواضح أن استمرار انقطاع المياه يهدد الاستقرار.

السفيرة،

* * *

أشعر بالملل. مر عليّ أسبوع ولم أكتب حرفا واحدا. لارغبة لى فى عمل أى شئ. لافى الكتابة ولافى القراءة ولا فى الخروج ولا فى الدخول ولا -فوق ذلك كله وقبله- فى الذهاب إلى العمل اللاعمل. أجلس الآن على مكتبى الأبيض. كان فى الأصل لوحة رسم أيام كنت أعمل مهندسا. قبل أن أصبح صحفيا، قبل أن أصبح باحثا فى علم الإجتماع، قبل أن أصبح روائيا. أجلس على لوحة الرسم التى صاحبتنى منذ بدايات البداية، منذ المنصورة والتمشى مع فخرالدين فى شارع الجلاء ليلا وعلى كوبرى طلخا وعند النيل. منذ أيام ماقبل العفن. ولم تفارقنى قط. الشئ الوحيد الذى احتفظت به معى طول هذه السنوات أو الذى احتفظ بى معه ولم يلفظنى. قال محمود درويش :

"بقاياك للصقر.

من أنت كى تحفر الصخر وحدك، وتعبر هذا الفراغ النهائى، هذا البياض النهائى؟

...

سنخلى لك المسرح الدائرى. تقدم إلى الصقر وحدك،

فلا أرض فيك لكى تتلاشى،

وللصقر أن يتخلص منك وللصقر أن يتقمص جلدك."

هذا هو ماحدث لى بالضبط.

سحر عيسى اختفت منـذ أسـبوع. وأنـا لا أجد مـا أفعلـه ولا رغبـة لـى فـى فعل ماأجده. سوى أن أكرر هذه الكلمات. أكتب: الملل. أضع القلم ثم أمسكه ثم أكتب: الملل. هل ستواصل سحر اختفاءها فى الصعيد أم ستعاود الظهور؟ هـل ملـت منـى ومـن مللـى ومن قرفى مثلما كانت تقول؟ من بين كل النساء اللواتى قابلتهن واللواتـى دخلت معهـن فى مغامرات عاطفية أو حتى محض جنسية: سحر هى الأقوى والأفضل والأروع. أقـوى من رامبو وأعظم من سنجام مثلما تقول عن نفسها. سأذهب لأعد لنفسى قهوة.

الصورة التقليدية التى يصورنى فيها فخرالدين: أرتدى روبـا بنيـا مـن الصـوف. أمامى كوب كبير من القهوة. وأستمع إلى موسيقى باخ. والجو نصف مظلم فـى الغرفـة وهناك أباجورة مضيئة فوق كتاب مفتوح من نصفـه (لـم أقـرأ أولـه ولـن أقـرأ آخـره). لكنى لن أصور نفسى هكذا لأننى مللت من تصاوير فخرالدين لى ومن فخرالدين نفسـه. سأصور نفسى بشكل مختلف، سأصور نفسى مـن الداخـل، أركـب فـى قطـار يتجـه إلـى المنصورة، يمر عبر الحقول، وأسند رأسى إلى النـافذة. أفكـر فـى مليـون ألـف شـئ. لا رغبة لى فى الذهاب للمنصورة ولا فى العودة للقاهرة. أحلم بأن القطار لايصل أبدا إلـى أى مكان. تأتى فتاة جميلة وتبتسم لى ثم تجلس إلى جوارى. أبتسم لـها ثم أقـوم وأنـزل سرا فى المحطة التالية. آخذ القطار المعاكس المتجه إلى مالست أعرف. أعد القهوة ثـم أنساها ثـم أتذكرهـا وأشـربها بـاردة ولا أهتـم. أتعـرف علـى شـاب يعرفنـى علـى شـباب يدبرون مؤامرة لنسف الحواجز الفرعونية عند مدْخل القـاهرة مـن ناحيـة شـبرا. أنـا لا أحبذ نسف المداخل لأن ذلك لن يحل شيئا ولكنـى أكره كـلا مـن وزيـر الداخليـة ووزيـر

التليفزيون فأشترك معهم. بعد أسبوع اكتشف أن ليس لى رغبة حقيقية فأنسحب متعللا بأى حجة.

لاأعرف أى الوصفين أفضل.

يجب أن أتوقف عن الحديث عن فخرالدين. لأنى دائما أتحدث عنه حتى عندما أريد أن أتحدث عن شئ آخر.

أبى مات منذ أسبوع

سأتحدث عنه مرة أخيرة. هو صديق قديم منذ أيام المنصورة وماقبل العفن. وقد سافر هو الآخر مع من يسافرون منذ أول أيام العفن. لم يحضر الجفاف الكبير ولا انهيار مجمع التحرير ولا إغلاق حدود القاهرة ولا أيام حظر التجول ولا الزلزال. يعيش فى فرنسا حيث يدرس للحصول على الدكتوراه. يأتى من حين لآخر ليذهب ثانية. يحضر لى أشياء لطيفة لكنها بلا فائدة، تقريبا. يكتب لى أحيانا وأحيانا لا. أحبه عندما يذهب أكثر مما أحبه عندما يبقى، ولكنى أكرهه لأنه يذهب دائما.

اتصلت سحر الآن وقالت إنها فى أسوان وأنها ستقضى بقية الشهر فى الصعيد وستعود فى أول الشهر القادم. كنت صامتا وكانت تتدفق بالكلام. أعتقد أنى سعيد بأنها ستعود. على الأقل هناك شئ أود أن أفعله، النوم معها.

كانت أمي مريضة منذ فترة. كانت لديها تشكيلة من الأمراض...أمراض السن الكبيرة كالسكر والضغط وتصلب الشرايين، أمراض العفن كالفشل الكلوى وسرطان الجلد، وأمراض أخرى متفرقة. وكنت قد استطعت أن أجد لها مكانا دائما في المركز الطبى المتعدد الذى أقامه الأمريكان في المنصورة. كان لها هناك ملف كامل وكانت تذهب بانتظام لأخذ علاج أو غسل كلى أو، أو إلى آخره. وكان أبى يعتنى بها جيدا. كنت أستغرب إخلاص هذا الرجل لهذه المرأة.

منذ أسبوع ذهبت أمى إلى المركز الطبى بصحبة أبى كالمعتاد. وأثناء وجودها على جهاز غسل الكلى مات أبى. هكذا.

قال الطبيب إنه ذهب ضحية لمرض كان نادرا وأخذ فى الانتشار فى الآونة الأخيرة. تحلل مفاجئ فى كل خلايا الجسم. ولم يبدو لى ذلك مقنعا.

اليوم إجازة من الوكالة. وكنت قد أعددت خططا كثيرة لهذا اليوم. لكن لارغبة لى فى فعل أى شئ.

أنا أطفو على الحياة ولا أعيش فيها

خطأ من؟

ليس خطئى أنا بالتأكيد. أنا أحاول الدخول إلى الأشياء. أحاول تقمص دورى جيدا. لكننى أضحك فى الوسط، لأنى أدرك جيدا أن هذه أدوار وأن هؤلاء ممثلون. ما

يقتلنى من الناس من يصدقون الأدوار فعلا ويحتدون فى الأداء. بالأمس فى الوكالة قال لى رئيس التحرير إنى لا أعمل كفاية. قلت له إنه لايعمل من أساسه. قال لى اشمعنى. قلت له إن الوكالة عبارة عن مقبرة جماعية للبلهاء من أمثالى وأمثاله. الفارق أنه لايدرك المسألة ويقوم بدوره كأبله ميت مدفون ببراعة حانوتى. زعل. لايهم.

جاءت بالأمس السفيرة الأمريكية لمعاينة الوكالة. سيقومون بإهداء الوكالة أجهزة تيكرز جديدة، لأن كل الأجهزة هنا عطلانة. كنت أنا -لسوء حظهم- (من هم ؟ لاأدرى) الوحيد الذى يتحدث الإنجليزية فى الوكالة ساعتها فقمت بالترجمة. كنت أترجم خطأ عن عمد. ستفشل الإتفاقية فيما يبدو. كنت أرقب وجه السفيرة الأمريكية وهو يحتقن كلما نقلت لها ردود رئيس التحرير (ردودى أنا فى الواقع) وكان ذلك يشعرنى بالبهجة.

موت أبى كارثة بكل المقاييس. كانت جنازته قاسية جدا وشعرت أنى أمشى فى جنازتى أنا. كانت أمى وأختى منهارتين فى المنزل. وكنت أنهار أنا من الداخل فى بطء. تماما مثلما مات أبى. أخى المسافر فى السعودية لم يستطع المجئ ولم أكن أريده أن يجئ. كنت واقفا عندما رفعوا جثة أبى ملفوفة فى الكفن ووضعوها فى جوف الأرض. كان الصراخ يتمزق داخلى. كنت أبكى كطفل صغير وأخبط على الأبواب بقدمى وأركل كل الكبار الواقفين فى مخيلتى وكنت واقفا كالصنم كشاهد المقبرة أمام المقبرة. كانوا يأتون ويسلمون علىَّ وأنا أسلم عليهم ولاأعرف من هم ولا كم عددهم. كنت أفكر فى البير كاميه وفى أمه الميتة فى رواية الغريب. لكنى كنت أنحل من داخلى. عندما بدأوا

يهيلون التراب عليه امتدت يدى بحركة تلقائية إلى يد الرجل أمنعه. ربت شخص ما على كتفى وسحبت يدى وواصلوا الردم. فى المساء كان صوت القرآن يجلجل فى فضاء خاو فى روحى. فى غرفة فيها مخصصة للعدم. كانت نبذبات صوت المقرئ تتخبط بين جدرانها ثم تتراكم على الأرض فوق مثيلات لها سبقتها. وكان منظر الصوان فارغا بعد انتهاء العزاء مرعبا.

لم أنم ليلتها.

سافرت فى اليوم التالى إلى القاهرة

لم أنم منذ أسبوع

سحر سافرت

لم أنم منذ مات أبى

أين المفر من هذا الجحيم؟

ناصر

• • •

باعنى التونسى. باعنى بنساله. أو ربما صديقه الإيطالى جرامشى المزعوم. وهاأنذا أقضى الليل على حافة الطريق السريع من فينتميجليا إلى جنوة. أنزلنى بنساله بعد أن خرجنا من فينتميجليا بقليل. فتح لى باب الصندوق الضخم فنزلت. ولم أجد أحدا واقفا. قلت:

– أين جرامشى؟

فقال يبدو أنه لم يجئ، لكنه لن يستطيع أن ينتظر، لأنه مرتبط بموعد للتسليم. وماذا عن موعدى أنا؟ قال إنه سيتصل بجان فى الغد ويخبره.

-جان؟ فى الغد؟ ومادخل جان؟ كلمنى أنا هنا

- لافائدة. أنا لم أتفق معك أنت بل مع جان

- ولكن الأمر يخصنى أنا

- جان هو الذى يدفع لى

- وماذا أفعل أنا حتى الغد؟

- لاأعرف، انتظر هنا أو فى أى من الحقول المجاورة

ثم انطلق بسيارته النقل الضخمة. وهاأنذا ملقى على قارعة الطريق. أنا حور الكاتب المصرى العظيم. أنا صانع الحضارة فى وادى النيل وصنو الفرعون. ماالعمل؟ وقفت أشير للسيارات. لاأحد تراوده نفسه أن يهدئ السرعة حتى ليرى من المشير. سرت قليلا. ولكن ذلك ليس حلا. ساقى تؤلمانى بشدة. وتذكرت أن موعد الحقنة الشهرية كان بالأمس ولم يكن لدىّ الوقت للمرور على المستشفى لآخذها. قلت آخذها فى روما أو فى القاهرة. كانتا تؤلمانى طوال الرحلة الطويلة من باريس إلى هنا. إحدى عشرة ساعة فى صندوق هذه العربة وهما تؤلمانى. يئست من الإشارة للسيارات فحدت عن الطريق. لاشئ من حولى سوى جبال الألب الميتة. الطريق السريع محفور فى الصخر عاليا فى قمة الجبال. سيحتاج الأمر على الأقل مسيرة ساعة حتى أصل إلى أول قرية أو تليفون أو أى علامة للعمران. الإله يعاقبك يابنساله والموت يحفر فى نسلك. علك تعبر نهر الموت حالا. هبطت باتجاه القرى تاركا الطريق السريع. وجدت دربا منحدرا بشدة إلى أسفل فاتبعته. الدرب يتلوى ويبدو البحر فى أسفل الجبل. البحر أسود

كالسماء فى هذا الليل. ماذا أفعل حين أهبط إلى القرى؟ هل أتصل بجان ليأتى إلىّ ويساعدنى؟ جان مرة أخرى وأنا الذى ماكدت أتخلص من الاعتماد عليه؟ هل أتصل بالشرطة الإيطالية لتأتى وتحملنى إلى السفير فى روما؟ أم ستحملنى إلى حرس الحدود؟ هل أطلب معونة أحد من أهل القرى كى يحملنى إلى روما أو إلى مستشفى ليعالج ساقى المعذبتين؟ ولكنى لا أتحدث حرفا واحدا من الإيطالية. ربما يتحدثون هم لغتى؟ ولكن جان قال لى إنه بمجرد عبور الحدود لاتجد شخصا واحدا يتحدث الفرنسية. كان حور يواصل الهبوط وساقاه تترنحان تحته. الظلام ينحدر من السماء ويلتحم بالبحر. الطريق مظلم أمامه ومنحدر وملتو. تعثرت قدمه والتوت تحته. سقط حور على صخرة وأخذ جسده يتدحرج نحو السفح.

* * *

نظرت فاطمة إلى سفح الجبل الممتد أسفل شرفتها. تنفست هواءً نقياً وملأت به رئتيها. منذ وصولها هنا وهى تجلس فى هذه الشرفة معظم الوقت. كان المنزل خاليا أو شبه خال. الشيخ فى المدينة معظم النهار وعندما يعود تكون الخادمة السيلانية قد أعدت كل شئ فيأكل ويقبلها على جبينها وينام. لم يضاجعها ولا مرة واحدة ولم يطلب منها شيئا، حتى بدأت تشك فى الأمر وتتساءل لِمَ تزوجها وتجشم عناء إحضارها من مصر إلى هنا؟ كان للشيخ ثلاثة أولاد لكنهم كانوا غائبين عن البيت للدراسة فى العاصمة ولن يعودوا قبل بداية الصيف القادم. كانوا ثلاثتهم فى السنة الأخيرة من

الجامعة وكانت أمهاتهم الثلاثة قد متن فى حريق شب فى منزل الشيخ القديم فى المدينة وأتى على حريمه الثلاث وعلى كل مافى البيت. من يومها وقد خرج للجبل.

جلست فاطمة فى شرفتها ونظرت إلى سفح الجبل الأجرد الممتد تحتها. لاشئ سوى الصخور والصخور. لاتذكر إطلاقا كيف وصلت إلى هنا. كانت هناك سيارة فارهة فى استقبالهم فى المطار. قادهم السائق إلى وسط المدينة حيث استقلوا سيارة جيب صعدت بهم الجبل إلى هنا وانصرفت. كانت فاطمة نائمة أو شبه نائمة طوال الطريق. ثم إن الطريق كله يتشابه، كله جبل وصخور وانحناءات ودروب، فِيمَ فائدة النظر؟ كانت صحتها قد تحسنت بدرجة ملحوظة منذ وصولها. إلا أنها كانت تذهب إلى المستشفى بانتظام لإجراء بعض الفحوص وكذلك لغسيل الكلى. كان السائق يمر عليها كل أسبوعين فى موعد محدد ليصحبها إلى مستشفى المدينة وينتظرها ويعود بها. نظرت فاطمة إلى سفح الجبل وهّى تتذكر أيامها فى بولاق الدكرور وسألت نفسها: هل ياترى ولت أيام السفر؟

* * *

كان يجرى فى الظلام ولايكاد يشعر بساقيه تحته. نقطة الضوء تترنح بطول خط الأفق. صاح رزق على حامل المشعل بأعلى صوته. كان يجرى فى الرمل الصحراوى فى أرض يجهلها. نقطة الضوء تتحرك إلى أسفل وإلى أعلى. أحس بخبطة قوية ثم اختفى الضوء.

سرى للغاية

من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية فى القاهرة

إلى وزارة الخارجية – واشنطن

يشاع أن الفرعون قد أصيب بأحد الأوبئة المنتشرة هنا وأنه يحاول الفرار من البلاد. لم تأت أى تأكيدات من القصر الفرعونى ولم تطلب أى تأشيرات دبلوماسية للولايات المتحدة.

نتابع الموقف

السفيرة

* * *

مدت سحر يدها بالمنديل الكلينكس إلى خلف أذنها لتمسح العرق المتسرب من شعرها إلى أعلى ظهرها. المفروض أن هذه الأتوبيسات مكيفة. نظرت إلى الراكب الوحيد القابع فى المقعد المقابل. منذ متى وهو جالس هنا؟ العرق يغمر وجهه وجلده ولايبدو عليه أنه يعانى من أى مشكلة. نظرت سحر من الشباك. كانت حقول الجيزة قاحلة والأرض سوداء مصفرة من طول جدبها. المنظر مخيف. هل هذه هى الحقول الخضراء القديمة التى كانت تمد القاهرة الكبرى بكل فاكتها وخضارها؟ هل هذه الشواهد

البنية المحترقة هي النخيل الذى كان يتهادى بطول الطريق الزراعى؟ هل طريق الموت هذا هو طريق الصعيد الزراعى الجميل؟ كأننى أمر فى أرض أسطورية. لاهى رمل ولا صحراء ولاحقول بل خراب محترق وعصف وهشيم. كم مرة مررت من هنا؟ أكثر من أن أعد. كلما مللت من رجال الفرعون ومن قرفهم هربت إلى الصعيد الذى عاد مستقلا وبعيدا عن سطوتهم. كأن أمراء طيبة عادوا وبدأوا فى تنظيم المقاومة ضد الهكسوس. لكن طيبة ليس بها أمراء. طيبة ليس بها أحد على الإطلاق. طيبة مدينة ميتة. أكل العفن جدران بيوتها المهجورة وعصفت الريح الملوثة ببقايا جثث أبنائها ممن لم يسعفهم الصليب الأحمر بالدفن الجماعى.

لاأنسى قط مشهد طيبة عندما دخلتها بعد الوباء الأخير. كأن الجراد أتى على أهلها. لم أر فى حياتى مدينة خاوية إلى هذا الحد. حتى أبوالهول الذى كان يحرس أسوار المدينة بألغازه المحيرة فر من على الأسوار. ليدخلها من يجسر على الدخول. حتى الجرذان فرت منها. حتى الموت فر منها. صارت شاهدا قائما على الانهيار الأخير وصارت مرتعا للصحفيين ومسجلى الأفلام التصويرية لشبكات التليفزيون الأجنبية. ندخل محصنين بمائنا وأقنعتنا وأنابيب الأكسوجين والملابس المضادة للإشعاع. نقضى منها وطرنا ثم نطير بأسرع مانستطيع. لاتصاريح ولاحكومة ولاحراس بعد خط الفيوم- بنى سويف. كل ماعدا ذلك ملقى للعدم يأكل فيه شيئا فشيئا وللموت يزحف عليه ببطنه الثقيلة ويربض فوق سمائه. كل شئ هنا ملقى للخراب يضرب فى أنحائه بأجنحته كالرخ الذى فك عقاله وجن. لاشئ يذكرك بالسلطة الفرعونية سوى لعنتها وهذا الأتوبيس الذى يجرى حتى أسوان بلا سبب. لأنهم نسيوه. لأنهم نسيوا الخط يعمل فظل هكذا. وظللت أنا المستفيدة الوحيدة تقريبا من هذا الخط الأحمق. كلما ضاقت بى

القاهرة، وهى جد ضيقة، هبطت ماكان واديا وصار الآن تجويفا هائلا، وأخذت معى كاميرتى وأخذت فى التصوير ومقابلة من أستطيع العثور عليه حيا أو شبه حى. ثم أعود للقاهرة أكتب ذلك كله وأنشره فى صحيفة هنا أو جريدة هناك. لمن؟ لمن يقرأ ولمن يهتم ولمن يستطيع أن يقول لا أو أن يحرك ساكنا أو أن يسكن متحركا. وماذا أكسب أنا؟ بعض من احترامى لنفسى أو مابقى من احترامى لنفسى. أنا المكرهة على العفن. أنا المكرهة على البغاء المقنع. أنا المغتصبة المضطرة الكارهة. هذا مابقى لى من احترامى لنفسى. وهذا مالم يستطيعوا أن يسلبوه منى. ولدت فى عفن يزحف من كل الجهات. ولما كبرت قليلا كنت أراه على كل جدار وبيت. ورأيت كل النساء مومسس برضاهن أو كرها عنهن. وعرفت من البداية أن هذا مصيرى قريبا أو بعيدا. كان هناك المومس من أجل المال. وهن من يسمون بالداعرات. وهن أغبى النساء وأجدرهن بالشفقة. وكان هناك المومس من أجل الحماية (هؤلاء اللواتى يضاجعن مقابل اللقمة والسقف الذى يأويهن). وهن كثيرات مرطرطات فى البيوت ومرتديات حجاب العفة والشرف. وهم أدعر النساء وأجدرهن باللعن والرجم بالجزم القديمة. وهناك المومس من أجل بعض النفوذ أو من أجل خدمات خاصة أو بلا سبب، وهؤلاء لاطعم لهن ولا رائحة وغالبا لايعرفن بالضبط لم يتشرمطن. ثم هناك أنا. مومس، مثلهن كلهن. ولكن هدفى الوحيد الدفاع عن نفسى ضد كل مالست أقدر عليه من كوارث هذا الزمن الخاص الذى ابتلينا به. مثلا: منذ سنة ونصف السنة صدر أمر فرعونى بالقبض علىّ باعتبارى أهدد أمن الدولة! وجاء العساكر وأمسكونى وقادونى إلى الحبس وأدخلونى فيه. كان ذلك فى الظهيرة وكان القسم مزدحما. ثم جاء الضابط المناوب فى التاسعة مساء. وعندما نظر إلىّ فهمت على الفور أنه كلب ووجد عظمة. ترددت قليلا ثم قلت لنفسى

بيدى لابيد عمرو (كان اسمه فعلا عمرو)، وقد كان. خرجنا سويا قرب منتصف الليل وذهبنا إلى شقته (أو شقة أحد أصدقائه) ونمنا معا مرتين ثم عدت لمنزلى فى سلام. هو تصرف بمعرفته. قطع المحضر أو لم يكن قد سجله أصلا،كتبَ هربتُ، كتب لم يستدل عليها، أى شئ. بعد ذلك فضلت أحوم وألف حتى عرفت الشخص المطلوب فى أمن الدولة وقد كان. بنفس الطريقة حصلت على ملفى كاملا من مباحث أمن الدولة. الملف نفسه وليس صورة منه. إسمعونى جيدا: أقول الملف الأصلى. مقابل نومة! ولا سجن ولا قضية ولا دياولو.

اكتشفت أن المسألة أبسط مما كنت أتخيل بكثير. لم يعد لى وجود أصلا فى سجلات الحرس الفرعونى. واستكملت حياتى عاديا جدا وكأن شيئا لم يكن. منذ ستة أشهر قابلت نفس الشخص وأعطانى الملف الجديد وكررنا نفس الصفقة. وهكذا أأمن نفسى. وإذا نقل سيأتى غيره، وهو رجل مهما كان ومن ثم فلا قلق. كان السؤال بسيطا وكذلك الإجابة. أنا أعيش فى مملكة يحكمها الجنون، هل أتركه يأتى علىّ أم أنفذ أنا بحيلتى فيه؟ فكرت، ورأيت، وخمنت، وجربت. واكتشفت أشياء جعلتنى أفهم. لمَّا فهمت، عرفت أن يوسعى فعل أى شئ فى هذا البلد الأمين. وقد كان. ومن يومها وأنا طايحة. لايهمنى مخلوق صغر أو كبر. المثل بيقول اللى تعرف ديته، اقتله. وأنا عرفت ديته وقدرت عليها (كده كده كنت سأدفعها) ومن ثم فأنا أقتله. أقتله بلا أدنى رحمة أو تردد. بلد موامس بصحيح. الأتوبيس يجتاز بنى سويف. آخر مظاهر الحياة، عند آخر هذا الشارع تبدأ مملكة الموت المطلق العنان.

* * *

فى محطة رمسيس الثانى كان عبدالعال جالسا أمام نصبة الشاى. أخرج حافظة نقوده الجديدة وأخرج منها النقود. عد خمسة عشر جنيها وأعطاها للريس محمد الواقف خلف نصبة الشاى. ابتسم له الريس محمد وقال:

- والله واتعلمت الخباثة ياعبدالعال!

رد عبدالعال فورا:

- عيب ياريس ده أنا أخوك الصغير

مضى عبد العال يحمل نصبته الصغيرة ودلف إلى المترو الراكن فى المحطة. ألقى بالمساء على السائق وناوله كوب الشاى الساخن وجنيهين جديدين. مر من خلفه وبدأ فى رص أكواب الشاى والحاجات الساقعة على الصينية. مر فى العربات يطرقع على زجاجات المياه الغازية بالفتاحة المعدنية. يناول الزجاجات ويلم الثمن مقدما ويحذر النازلين فى المحطات الذين يشربون سفلقة. القطار ينهب الأرض باتجاه حلوان. يخرج من النفق فيغشى الضوء عينى عبدالعال ويدخل فى النفق فيغشى الظلام عينيه. وعبدالعال يمضى حاملا صينيته موازنا جسده كيلا يسقط من إهتزاز القطار أو يسقط مامعه. مع الوقت لحق بالشاى والحاجة الساقعة أمشاط وفلايات ثم محافظ وإبر وبنس للشعر، ثم أصبح كشكا متنقلا. يركب عبدالعال فى نفس القطار كل يوم ويناول السائق جنيهين وثلاثة أكواب شاى فى النهار. فى المساء، بعد منتصف الليل بساعة يتم القطار رحلاته اليومية ويذهب للنوم فى جراجه عند قدمى الفرعون النائم واقفا فى ميدانه. وعبدالعال لايفارقه قط. بعد منتصف الليل بساعة يأتى الشاويش المناوب ليفتش على القطار. يلقى بالتحية المعتادة على عبدالعال الملتحف بالبطانية الميرى التى أحضرها له

الشاويش عطية، يرد عبدالعـال التحيـة وهـو يخـرج يـده مـن تحـت البطانيـة بـالجنيهين الجديدين. تصبح على خير ياعبدالعـال، ويمـد يـده يتطـف الجنيهين ويـردد وهـو سـائر والله واد غلبان. كان عبدالعال يخاف من الشاويشية. وكان خوفـه مـبررا. عندمـا جـاء الشاويش الجديد أحمد إسماعيل، وهـو صعيـدى مثلـه مـن نواحـى كـوم امبـو، هـب فيـه صارخا عندما رآه يمد يده بالجنيهين من تحت البطانية وأمسك بتلابيبـه وأقسم ليبيتنـه فى الحجز باعتباره لص قطارات ومتسولاً ويحاول رشوة موظف ميرى. واقتاده بـالفعل خارج نومته فى العربة إلى مكتب مباحث المواصلات فى المحطة. كان عبدالعال يرتعش من الرعب وقد أيقن أن نهايته اقتربت وأنـه سيواجه ماكـان يخشـى منـه منـذ سنوات. جلس عبدالعال فى مكتب المباحث بانتظار أمين الشـرطة المنـاوب. كـان المكتب بجـوار الحواجز الحديدية المؤدية لأبواب الخروج. كان عبدالعال ينظر إلى هـذه الحواجـز وهـو يرتعد. أحكم إغلاق البطانيه عليه ولكن الرعشة لم تفارقـه. دخـل أميـن الشـرطة وألقـى بأوراق فى يده على المكتب الخشبى. لف إلى خلف المكتب ورفع سماعة التليفون وبـدأ حديثا خافتا ومطولا. كان يتحدث ويلف بكرسيه المتحرك خلف المكتب. لم يكن عبدالعال يسمع شيئا مـن المكالمـة الطويلـة. وفـى إحـدى التفافـات الأميـن علـى الكرسـى رأى عبدالعال المكوم فى بطانيته السوداء فجأة. انتفض من الخضة وصرخ فيه:

- إنت بتعمل إيه هنا ياحيوان انت؟

- الشاويش أحمد يابيه جابنى هنا. عايز يمشينى

قال عبدالعال عايز يمشينى ولم يقل يخرجنى من المترو. لـم يجـرؤ علـى النطـق بالكلمة.

- هو الواحد ناقصكم ياغجر!

أنهى الأمين المكالمة التليفونية وضغط على زر بجواره. كانت قامته مرتفعة فوق المكتب وقدماه تدقان الأرض في نفاد صبر. ظهر أحمد إسماعيل مهرولا. بعد حوار سريع نظر إليه الأمين:

- انت ياله! انت مابتورّدش اللى عليك ولا إيه؟

- باورّد والله ياسعادة البيه، واسأل الريس محمد

- طب بس بس، سد. انت ح تعمل لنا فضيحة. إخرس خالص!

استكمل الأمين الحوار مع الشاويش. وجه الشاويش أحمد يتلون أحمر فأحمر غامق فيعود أسود مثلما كان.

- إنت ياله! عاوز تخرج؟

انكسرت عينا عبدالعال ورد متمتما:

- أخرج أروح فين يابيه؟

* * *

كانت فاطمة تجرى فى الجبل. لاتعرف إلى أين تجرى ولافى أى الاتجاهات. الشمس توشك على الغروب فى هذا الجبل المجهول المخيف وقدماها لاتتوقفان عن الجرى فى اتجاه النزول. كلما لاح لها درب نازل سلكته. الصخور التى مزقت أجزاء من ثوبها ومن ذراعيها هى كل ماحولها من علامات. ياليتنى حفظت الطريق. ياليتنى ماجئت إلى هنا. ياليت الموت سبقه إلىّ. كانت تجرى وكان الموت يطاردها. الموت الذى فرت منه فى بولاق الدكرور عرف طريقها وجاءها. هاهو واقف أمامها خلف هذه الصخرة. تحت هذا المنحنى، فى آخر هذا الدرب، وفى عواء الذئب الآتى من جوف

الجبل السامق فوق رأسها. من فوهات بنادق أبنـاء الشيخ المنتشرين فـى الجبـل بحثـا عنها ومن فوهات أجسادهم الباحثة عنها. كانت تجرى والصخـور تمـرق عبر نظرتـها اللاهثة فى اتجاه لاتدركه سوى بغريزتها. وإلـى أين أجرى؟ إلـى مدينـة لا أعرفهـا ولا أهل لى فيها ولا ناس. من النار إلى النار أجرى. قفى. قفى وخرى ساقطة. ساقطة. هذا هو قدرك المحتوم. منذ العفن فى بولاق حتى الرجس فى هذا الجبل المقدس. لاتجـرى، لاتحاولى المزيد من الهرب. سيجدونك سيجدونك. وسيمسكون بك ويرضخونك لغرائزهم ولأنيابهم. كانت الشمس تغيب وفاطمـة تجـرى هاربـة فـى قلـب جبـل غريـب فـى أرض غريبة.

* * *

سرى للغاية

من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية فى القاهرة

إلى وزارة الخارجية – واشنطن

– تسلمت السفارة اليوم منشورا من الخارجية المصرية يفيد بأن الفرعون لـن يستقبل ابتداء من اليوم أيـاً مـن السـفراء الأجـانب إلا لتسلم أوراق الإعتمـاد وأن كافـة الاتصالات يجب أن تجرى من الآن فصاعدا مع وزير الخارجية أو رئيس الوزراء.

– هناك شئ غير عادى يحدث. وقد طلبت على الفور مقابلة الفرعون باعتبارى أمثل الولايات المتحدة

سأوافيكم بالتفاصيل فى حينه

السفيرة

* * *

كانت الأهرامات تبدو من خلف الزجاج الكبير فى مقهى الميناهاوس. السيد مينا لم يأت بعد. تأخر عن موعده ربع ساعة حتى الآن ولم يأت بعد. الأهرامات تبدو متماسكة بل وطبيعية لمن لايعرف. لكننى أنا أعرف. من ضمن تطبيقات البحث الذى أجريناه منطقة الأهرامات. وتبين التالى: الأهرامات تعوم فوق بركة من العفن الجوفى المتسلل من المناطق السكنية المجاورة وخصوصا من الطالبية. وقد ارتفع منسوبه فى بعض الحالات، مثل حالة الهرم الأصغر ليصل إلى غرفة الفرعون. وبالتالى قررت هيئة الآثار إغلاق الأهرامات. كان منظرها مع ذلك من الخارج محتفظا بكل روعته. وكانت الأقمار الصناعية تواصل تصويرها فى برامج خاصة تنقل إلى أوروبا وأمريكا الشمالية واليابان للسياح الذين لم يعودوا يستطيعوا القدوم إلى مصر.

مد يده إلى فنجان الشاى ورشف منه رشفة. عندما جاءت سحر عيسى إلى فى المنزل، كنت قد جهزت لها صورة من كل الوثائق، وقصصت عليها كل قصصى فى الشركة سواء مع مدير مكتب الدكتور بدير أو مع مدير إدارتى ونائبه أو مع الدكتور بدير نفسه. ولم تدخر الآنسة سحر وسعا فى كتابة الموضوع. وكانت فضيحة بجلاجل

على صفحات روزاليوسف. ونفد العدد هذا الأسبوع وأعيد نشره مع بعض الردود فى العدد التالى. قالت لى سحر عيسى إنها لم تتلق فى حياتها مثل هذا العدد من المكالمات التليفونية. مابين تأييد وعرض مساعدات، وأناس يقصون قصصا مشابهة وقعت لهم، ومابين شتائم وتهديد ووعيد. وظلت القضية ساخنة لمدة شهر على صفحات المجلة. بعدها بأسبوع، وعندما بدأت الضجة تهدأ، اتصل بى السيد مينا مستشار الفرعون لشئون مكافحة التلوث. وحدد لى موعدا فى ميناهاوس. وقابلته بالفعل. وسلمته نسخة من البحث. وتحدثنا طويلا. ثم تقابلنا مرتين أخرتين وفى كل مرة كان يستوضح منى نقاطاً تفصيلية توشى باهتمامه بالبحث ودراسته المفصلة له. ودخلت فى مرحلة من النشوة. وعاد الأمل بكل قوته الىّ. وعادت الأحلام، وعادت مصر خضراء يانعة نظيفة وجميلة. وظللت فى هذا الزهو شهورا. ثم شهورا أخرى. ثم شهورا إضافية.

ثم لم يحدث أى شئ.

وحاولت الاتصال بالسيد مينا، فاكتشفت أنه لم يعطنى لاعنوان ولا رقم تليفون ولا أى وسيلة للاتصال به. وظللت تائها هكذا، لا أعرف ماذا يجب علىّ أن أفعل. وبعدما تحول الملل من صلابته إلى غيظ شديد من كل ماجرى، اتصلت مرة أخرى بسحر عيسى. إلا أنها لم تكن موجودة وقال لى رئيس التحرير إنه لا معنى لإعادة فتح الموضوع لأنه لاجديد فيه. حاولت إقناعه بكل السبل ولكنه رفض فى عناد شديد. اتصلت بكافة صحف المعارضة وبالمستقلين وغيره، لكن أحدا لم يرد الخبط فى السيد مينا. وبعد أسبوعين إتصل بى السيد مينا وقال لى إنه سمع من أصدقائه أنى أبحث عنه. ففهمت أنه عرف باتصالاتى وأنه يقصد أنى أرغب فى التشهير به لا البحث عنه فقلت مادام يعرف فلا داع للمراوغة، فهببت فيه، فحدد لى موعدا فى الميناهاوس. ثم

لم يجئ. ثم اتصل ثانية يعتذر بسبب انشغاله، فقلت بمَ ينشغل عن هذا الموضوع إذا كان هذا الموضوع هو شغله؟ فقال ضاحكا إن الأمور أعقد من ذلك وأنى مثالى أكثر من اللازم. كل ذلك ولم تأت سيرة عودتى للعمل، ولم يحدث أى شئ لا للدكتور بدير ولا لمدير مكتبه أو لمدير إدارتى. عاودت الاتصال بسحر عيسى فوجدتها. وقابلتها ثانية ونشرت مرة أخرى –فى روزاليوسف– قصتى مع السيد مينا. لمَ أفهم لم قبلت هذه المجلة أن تنشر مع أنها رفضت من قبل. ولما سألت سحر ابتسمت ابتسامة غامضة وقالت إن لها دلالا على رئيس التحرير. لم أفهم ولم أهتم أن أفهم. بعد ذلك اتصل بى مرة أخرى السيد مينا وحدد لى هذا الموعد. هاهو يعبر المقهى قادما. شكله لايتغير أبدا. قامته القصيرة وجسمه الضئيل. عيناه البارزتان قليلا للخارج والمتحركتان دائما. قميصه الأبيض المفتوح دون ربطة عنق. وبشرته البيضاء. جذب كرسياً وجلس فى بساطة متناهية:

– مساء الخير ياسيدى!

– مساء النور يافندم

– جاهز؟

– علشان؟

– تيجى معايا

– فين يافندم

أومأ السيد مينا برأسه عدة مرات وهو يواصل الحديث فى لهجة شبه آمرة:

– ح تيجى معايا مصرالجديدة. مولانا إحتمال يكون عنده وقت وندخلك له

قام السيد مينا واقفا مع نهاية كلماته فوقفت. تحرك فتحركت وراءه. مررنا بجوار المتردوتيل الذى رفع يده بالتحية للسيد مينا ثم هز رأسه لى ببقايا الابتسامة المخصصة للسيد مينا. مررنا سريعا من بهو الفندق إلى الباب. انفتح الباب وبدت سيارة السيد مينا واقفة. فتح لنفسه الباب المجاور للسائق ودلف سريعا. لم أجد بداً من أن أجلس وحدى فى المقعد الخلفى، ففتحت الباب ودخلت. أغلقت الباب وانطلقت السيارة السوداء فى شارع الهرم عائدة باتجاه ميدان الجيزة. كان الطريق طويلا. هو هو نفس الطريق الذى قطعته منذ لحظات. الفارق الوحيد أنى لم أكن بجوار سائق تاكسى وأنى أركب سيارة مكيفة مع السيد مينا. وأننى متوجه لرؤية الفرعون. أنا متوجه لرؤية الفرعون. كان الطريق مزدحما بالسيارات وكان السيد مينا صامتا تماما. دق جرس تليفون صغير ورد السيد مينا بصوته الحاد. كان مقتضبا ولم أفهم شيئا من ردوده يمكننى من معرفة المتصل. هل يمكن أن يكون الفرعون شخصيا على الطرف الآخر؟ هل هذا الرجل الجالس أمامى الآن هو هو مستشار الفرعون الذى يقابله كل يوم؟ كل يوم؟ يرى الفرعون وجها لوجه ويكلمه ويشير عليه وربما يناقشه ويحاجه وربما يحجه ويقنعه. هل هذا الرجل البسيط الذى لايرتدى حتى ربطة عنق، هذا الضئيل الحجم هو السيد مينا مستشار الفرعون حقا وصدقا؟ كانت السيارة تنطلق الآن بالقرب من نفق الهرم. كانت الشمس لاتزال عالقة بالسماء وتلقى ببعض ضوئها على الأرض. هبطت السيارة سريعا فى نفق الهرم وكنت أفكر فى أنى سأسلم فرعون مصر الحل بعد دقائق.

* * *

فتح رزق عينيه فأبصر الجندى الإسرائيلى واقفا ببندقيته فوق السور، فأغمض عينيه ثانية. فتح حور عينيه فأبصر الطبيب الإيطالى واقفاً يلوح بيده لممرضة. جان واقف فى نهاية الممر يمسك بسيجارة مطفأة. اقترب منه جان لما لمح حركة رأسه فأغمض حور عينيه ثانية. فتحهما فأبصر الجندى الإسرائيلى يشعل سيجارته ويعيد العلبة إلى جيبه. قلب وجهه فرأى بقية الأسرى على أسرّتهم فى مركز الإعتقال. كان الجندى يبدو فى برجه الزجاجى من خلف الزجاج. لم يكن رزق يشعر بالجوع وانما بالضياع. قال لنفسه: لافائدة. سيظل جان يلاحقنى وسأظل محتاجا إليه. كلما هممت بالهرب منه وجدته فوق رأسى ووجدت نفسى مرغما بحاجة إليه. فتح عينيه وابتسم لجان. أومأ جان برأسه وقال بفرنسية واضحة افتقدتها أذناه: لاتخشى شيئا. سيتم نقلك إلى الأراضى الفرنسية فورا. ستكون تحت حراسة البوليس، لكن لاتقلق، ستتدبر الأمور جيدا. لقد اتصلت بمحام ويبدو أن قضيتك متماسكة. لاتقلق. هل تشعر بأنك أفضل؟ كان يجب أن تخبرنى بموضوع الحقنة الشهرية. على العموم كل ماينتهى خيرا هو أمر حسن. صمت جان ولم يرد حور. كان منزعجا بشدة من إكتشافه أن أذنيه كانتا تفتقدان سماع الفرنسية إلى هذا الحد. كانت شفتاه قد تحجرتا. أخذ شربة ماء أخرى ولم يشعر بالرغبة فى شرب المزيد. قال الحارس الإسرائيلى بالأمس أنهم سينقلونهم إلى تل أبيب. سيتم نقلنا جميعا بالسيارات. سيتم نقلك بالطائرة ياسيد حور، نتمنى أن تكون قد قضيت معنا وقتا طيبا. ابتسم الطبيب الإيطالى فى فرنسيته غير المفهومة ولوح بيده مودعا.

- إلى متى سنظل هنا؟

سأل رزق زميله المستلقى بجواره. نظر إليه ذلك الأخير شذرا ولم يرد. كان البوليس الفرنسى واقفا بالباب. دخل الكابتن فوشيه وانحنى على حور:

– سيدى: ستبدأ الآن عملية إعادتك إلى باريس. نحن نتمنى أن تتم فى أفضل الأحوال لكم ولنا. وأود أولاً أن أعرب عن فائق احترامى أنا وبقية الفريق المكلف بالنقل لشخصكم وللتراث الذى تجسدونه، إلا أنى مضطر لتذكير سيادتكم بأنكم تحت حراستنا وفى عهدتنا وأن واجبى يحتم علىّ إعادتكم للأراضى الفرنسية تحت أى ظروف باعتباركم –من الناحية القانونية– ملكية فرنسية.

– سيبدأ ترحيلكم بعد الظهر. لكم وجبة إفطار ستقدم بعد قليل ووجبة الغداء ستأخذونها قبل الرحيل مباشرة. لاداعى للزحام، نحن نعرف أنكم معشر المصريين مولعون بالزحام، لكل واحد مكانه فى أتوبيسات الترحيل. سترحلون إلى مركز التجميع فى تل أبيب. ستطبق عليكم قواعد الجيش الإسرائيلى لأسرى الحرب فيما لايتعارض مع اتفاقية فيينا الخاصة بمعاملة أسرى الحرب.

كانوا يدخلون النقالة الممدد عليها حور إلى الطائرة. مراوح الطائرة تدور وهو يستعد للسفر من جديد. رزق يقضم بقية لقمة احتفظ بها والأتوبيس يقطع الطريق من العريش إلى تل أبيب. طوال الطريق، كان رزق يرى المعدات والدبابات والمواقع المصرية المدمرة. أين ذهب الباقون؟ نظر رزق فى الأتوبيس ولم يتعرف على أحد من بقية الأسرى. كان الأتوبيس يهتز بشدة وهو يقطع صحراء سيناء فى طريقه لإسرائيل.

* * *

سرى للغاية

من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية فى القاهرة

إلى وزارة الخارجية – واشنطن

– قابلت الفرعون اليوم وكان يبدو غريبا. لم يخرج للقائى كالمعتاد ولم يسلم علىَّ باليد عند دخولى البهو الفرعونى مثلما كانت العادة. ظل جالسا فى عرشه بعيدا عنى وكانت ردوده مقتضبة وبلا حرارة. كان لونه ممتقعا كالموتى. لم تسفر المقابلة عن أى شئ إذ إن ردوده كانت عامة وغير محددة.

– تعتقد السفارة أنه مريض وربما فى مرحلة حرجة. نتابع الموقف

السفيرة

* * *

القاهرة فى ٢٦ نوفمبر

صديقى فخر:

أتعرف لماذا أصر عليك رغم البعد والمنافى المختلفة الأشكال والأسماء؟ ليس فقط من أجل تاريخ طويل مشترك. بل –وأولا– لأنك تعبر عنى جيدا عندما أكون غائبا عن الوعى. ولأنى غائب عن الوعى –وعيى وعقلانيتى وذهنيتى وصفاء روحى وتركيزى– ولأنى مغيب عن هذا لصالح اكتئابى –المقيم بفعل العادة أكثر من فعل

السبب- ولافعلى- لأن الكمون واللعن أسهل من الحركة والمواجهة- تصبح انت ضروريا لازما وغير قابل للاستبدال.

٩ ديسمبر

لا ياعزيزى، لست عدميا ولو كنت كذلك ماتألمت أو بحثت عن حل والمشكلة أنى غير عدمى يحيا حياة عدمية وهذا خراء طازج.

أشعر داخلى أنى بدأت أستمرأ ما أنا فيه، لأنه لا يقتضى منى فعلا محدد بل مجرد استمرار وهذا شئ مرعب ومخيف، لأنى عندما أستيقظ الى نفسى أكاد أجن رعبا من القادم والمستقبل وأشعر ببرودة شديدة وباللاشئ فى. هل تتذكر أنطوان روكانتان فى "الغثيان"؟ أنا مثله ولكنى أعيش فى عفن سائل.

١٠ ديسمبر

قال:

بحر لأيلول الجديد

وأنت إيقاع الحديد

تدقنى سحبا على الصحراء

وأقول: فلتمطر

١٧ ديسمبر

لاتكتب لى أى شئ بالفرنسية.

١٨ ديسمبر

ريم على القاع بين البان والعلم.. أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم. لا أعرف لماذا أتذكر هذا البيت دائما؟ ربما لجرسه الموسيقى، أو لأنى لا أعرف معناه بالضبط.. والله العظيم أفتقد سعادتكم بشدة رغم غضبى عليكم الذى يذهب الآن فجأة، فأشعر تحديدا بحنين شديد إليك. أريد أن ألقاك فى منتصف المسافة بيننا وأن أخرج منى إليك مرة وأن أكافئك على السعادات الكثيرة التى منحتها لى هذه الصداقة وأن أقول إنى أحبك فلا أشعر بالخجل أو بركاكة الألفاظ وأريد..وأريد.

أنا متيقن أنك سعيد أو على الأقل مرتاح، حيث أنت، وهذا مصدر سعادة لى رغم بُعد المسافة.

أريدك أن تخبرنى عن الرواية والدراسة والمنزل وشيرين ومريم وأنت.

٢٥ ديسمبر

أحب النوارس التى تلجأ للبحر فى العاصفة

وأكره الموت الذى ينام على حياتى الواقفة

وأنتظر

٣٠ ديسمبر

أرسلت خطابا لك صباح اليوم ولكنى أشعر أحيانا أننى أتكلم معك أتحدث إليك وأنك هنا والآن وكم نحن بعيدان ليس فقط جغرافيا بل تاريخيا يافخر.

هاقد أدركت أخيرا أن السبل قد تفرقت بنا.

سرت أنت فى طريق غير محدد المعالم لكنه طريق، وقفزت أنا كالمظليين فى المستنقعات أطفو دائما وأعيش أحيانا وأغوص كثيرا فيها وانتظر.

٣١ ديسمبر-ليلة رأس السنة الجديدة

استيقظت صباح اليوم فى الحادية عشرة وبعد إفطار عادى أعدته الوالدة المقيمة أسبوعا معى وكوب من القهوة قررت البقاء فى المنزل -كنت أخطط للذهاب إلى مكتبة الجامعة الأمريكية للعمل فى كتاب جديد، أخطط له منذ شهور ولاأعمل فيه أبدا- بعد ساعة من القراءة والقهوة حان وقت النزول. هناك موعد سابق مع سحر. اتصلت بها ولم تكن موجودة. ذهبت إلى بين السرايات. لم أتسكع منذ كنت أنت هنا فى الشتاء الماضى. شربت شيشة جيدة على مقهى أمام باب كلية التجارة وأنا أنظر إلى الطلبة والسيارات. اتصلت بسحر وأشرت إلى تاكسى وذهبت إليها فى بيتها فى الثانية. قلنا كلاما فارغا عن أشياء كثيرة ووصلنا إلى السرير فى الرابعة (موعد بدء ورديتى فى الوكالة) بعد أربع زجاجات من البيرة التى أهداها إياها شخص ما قادم من الخارج. ثم قمنا فى الثامنة. أكلنا سويا ثم نزلنا وذهبنا سويا إلى المجلة التى تعمل فيها. ظللنا نهلفط فى أحاديث عن العفن وعن جدوى مقاومته وعن الحكومة وعن الفراعنة ثم عبرت شارع قصرالعينى إلى تاكسى آخر نحو المنزل فى شارع التحرير. العائلة

المقدسة كلها اجتمع شملها فى منزلى العامر اليوم. صنعت قهوة ثم شاياً ثم قهوة. أمى مندهشة من كمية الماء التى لدىَّ فى المنزل. زاد تقديرها لشخصى الكريم لما رأتها. منذ ثلاث ساعات وأنا أعمل فى الكتاب الوهمى إياه. قرأت فصلا من الجزء الثالث من خماسية "مدن الملح" لعبدالرحمن منيف وثلثى كتاب عن تجارة الرق والعبودية فى أمريكا، ثم قرأت منذ دقائق خطابا أرسلته لى فى فبراير الماضى من باريس وكان دافئا وقويا وطويلا فأشعلت البايب وصنعت قهوة عاشرة وجلست أفكر فيك..

أنا الآن أهدأ. ولا أريد سوى سلام روحى.. والسلام.

ناصر

• • •

جلست فاطمة فى شرفتها تنظر إلى سفح الجبل الممتد أسفل الشرفة. منذ محاولتها الأخيرة للفرار من هذا الجحيم وهى تحت المراقبة المستديمة. الخادمة السيلانية تجلس داخل الغرفة، وعلى باب البيت كلب كبير مطلق السراح. فيمَ كان كل ذلك؟ كانت تشعر بالعار يأكل جسمها كله. صارت تكثر من ارتداء الملابس برغم هذا الحر الخانق ودون أن تستطيع التغلب على إحساسها بالعرى. أنا المستباحة. أنا الآكلة بثديها. قالت لويزا فى الفيلم بالأمس:

– لولم يكن قتل النفس خطيئة لقتلت نفسى قبل أن أكون أمة لعربى.

كان معها كل الحق. لويزا الفارسة الصليبية وقائدة الهوسبتاليين. وأنا لا أستطيع قتل نفسى حتى لو لم يكن خطيئة. وقد صرت أمة لا لعربى واحد بل لثلاثة

مجتمعين. كانت فاطمة تجلس فى الشرفة تحاول التخلص من رؤية نفسها فى مرايا غرفتها. تحاول التخلص من إحساسها الدائم بالرجس والرغبة المحمومة فى البقاء فى الحمام تحت الدش إلى الأبد. كانت تفيق فى الليل فى نوبات صراخ محمومة منذ أن أعادوها فى الصيف الماضى إلى هذه القلعة الدنسة. بعد الفرار وما لاقيت فيه، وبعد الوصول المستحيل إلى باب القنصلية المصرية، جاء الجنود وأخذونى. جاءت الشرطة البدوية وأخذتنى، ولم يستطع أحد أن يمنعهم وابتلعوا جميعا رجولتهم فى حلوقهم وهم يروننى أساق إلى سوق النخاسة الجديد القديم فى هذه الأرض الطاهرة. وهاأنذا، أنا الأمة الأصلية، المكتوبة فى الكتاب، أنا ملك اليمين، أنا العبدة، أنا الرقيق الأبيض أو الأسود لايهم. ولكن من الذى قبض ثمنى؟ جاءت السيارة الجيب وعلا نفيرها ودوى صداه فى فراغ الجبال. حان الآن موعدى. إما الآن وإما لويزا معها حق. وإما العودة لموتة بولاق الدكرور التى فوتها. نزلت فاطمة إلى السيارة الجيب تصحبها الخادمة السيلانية للذهاب إلى المستشفى لموعد غسل الكلى النصف شهرى. ربط حارس البيت الكلب أولا ثم دلفت السيارة إلى الفناء الداخلى. هبطت فاطمة تتبعها الخادمة السيلانية ودلفتا فى السيارة. تحركت السيارة وتقهقرت، ثم انطلقت عبر دروب الجبل الهابطة إلى السفح. الصخور مرة أخرى. هذه الصخور وهذا الطريق العقيم. منك لله يامن كنت السبب -أيا كنت- فى مجيئى هنا ورؤيتى لهذه الصحراء الجرداء التى لم تكن عينى لتتأذى برؤيتها أبدا لو كانت الأمور غير ماصارت عليه. منك لله أيا كنت يامن ظلمتنى وأوصلتنى لهذه النخاسة. منك لله يابعيد. فى الإنحناءة القادمة. عند المنحدر القادم. أما سمعت من قبل عن القطة التى تهبش من يقترب من أطفالها. أطفالى كلهم ماتوا وزوجى معهم. وكنت أظن أنى أنقذ شرفى وحياتى بالمجئ هنا فى حضانة هذا الشيخ

الطبيب الغادر الفاجر. فى الانحناءة القادمة تلاقى ربك لتعلم منه إن كان حقا أن تشترك معهم فى هذا الرجس. أدار السائق وجهه ليرى المنحنى وهو يلف بالسيارة فى أعلى الجرف المؤدى للسفح. دفعته فاطمة على حين غيرة فى اتجاه الإنحناءة عبر باب الجيب المخلوع. ذهب السائق فى صرخته الأخيرة عبر الصخور وأمسكت فاطمة بعجلة القيادة تتم الالتفاف وهى تنتقل للجلوس محله. أوقفت السيارة وشدت الفرامل ونظرت إلى الخادمة السيلانية المصعوقة من المفاجأة والرعب. نظرت فاطمة إليها وسألتها فى حدة:

- ها؟ تيجى معايا ولا تروحى معاه؟

بلعت الخادمة ريقها ولم ترد. أدارت فاطمة مفتاح السيارة وانطلقت بها. لاتختلف كثيرا عن ميكروباصات بولاق-إمبابة. انطلقت فاطمة عبر الطريق الجبلى ولم تكن تعرف إلى أين تتجه.

* * *

كنا نحمل الموتى وندفنهم. بالأمس فقط دفنا ما يزيد على مئتى جثة. كنا ندخل البيوت فنجد كل سكانها مكومين بالداخل بلا حراك. أحيانا كنا نجد جثة أو اثنتين على مقربة من البيت كأنما كانتا يحاولان الفرار من موت باطش طويل الذراع فأمسك بهما فى آخر محاولاتهما للهرب. فى أحيان أخرى كنا نجد بقايا جثث متحللة أو مهشمة. كنا ندفن كل ذلك بلا تمييز وبلا طقوس فى مدافن جماعية نحفرها فى وسط المدينة. أو ماكان وسطا للمدينة. الهدف من اختيار وسط المدينة أنه أقرب بقعة لكل أنحاء المدينة،

وبذلك نوفر الوقت والجهد على كل فرق البحث التى تجوب الأحياء حيا حيا. كنت قد تعرفت على فرق الصليب الأحمر عن طريق ناصر صديقى ومن يومها وأنا أجوب معهم فى مدن الصعيد المهجورة لنتم هذه المهمة. كانت نية البعض إنسانية بحتة أو حتى دينية باعتبار أن إكرام الميت دفنه. ولكن اهتمام الصليب الأحمر الأساسى كان صحيا. لأن ترك الجثث فى العراء كان فى حد ذاته مصدرا للأوبئة. وبالفعل فإن عددا كبيرا من الوفيات كان بسبب الطاعون والكوليرا وليس بسبب التلوث. كان الطاعون يسير فى الصعيد كالنار فى الهشيم. كان فى الهواء ممزوجا بالعفن السائل ومتغلغلا فيه. ولأن المصائب لاتأتى فرادى أبدا فقد تبين أن التلوث والعفن يوفران أنسب البيئات الحيوية لنمو وانتشار الطاعون والكوليرا. أكثر ماأفزعنى وحرمنى من النوم هو منظر الجثث الناقصة. فى أول مرة رأيتها أغمى علىّ. وقص على أطباء الصليب الأحمر أن التفسير الوحيد لهذه الظاهرة الغريبة هو أن البعض كان يضطر إلى التقوت بلحم الموتى وذلك لنفاد الطعام نهائيا من بعض المناطق. وبالإضافة إلى مايشكله ذلك فى حد ذاته من انتفاء للآدمية أو لما بقى منها، فإنه لم يكن سوى حل مؤقت، لأنه كان يودى بحياة المتقوت بعدها بأيام قليلة، إذ إن لحم الجثث كان مترعا بشتى أنواع الأوبئة. كان الصليب الأحمر وعدد آخر من المنظمات الطوعية مثل "أطباء بلا حدود" الفرنسية و"السلام الأخضر" قد حصلوا على تفويض من الأمم المتحدة وبموافقة الفرعون على العمل بحرية وبلا أى قيد فى الصعيد ابتداء من جنوب بنى سويف باعتبارها منطقة كوارث عالمية ومفتوحة لكل من لديه الاستعداد لوضع قدمه فيه. وكانت هذه المنظمات تقوم ببعض الأعمال الجيدة مثل عمليات الدفن ومثل عمليات حرق القرى الخاوية والتى يفوق عدد الموتى فيها من البشر والحيوانات قدرتهم على الدفن فى زمن معقول. لكن

قدرة هذه المنظمات على الإغاثة كانت ضئيلة أو شبه منعدمة ناهيك عن مقاومة العفن نفسه. فى البداية كانت مقاومة العفن هى الهدف المعلن للعمليات التى يقومون بها، ولكن شيئا فشيئا اتضح أن ذلك الهدف مستحيل التحقيق لأسباب أكثر من أعددها هنا ومن ثم بدأت تركز على الإغاثة. لكن حجم المأساة فرض نفسه وأصبحت الحيلولة دون تفاقم الأوبئة هى جل ماتستطيع هذه المنظمات العمل على تحقيقه. وحتى ذلك الهدف لم يكن مضمون التحقيق. لكنى شاركت فى بعض جهود الإغاثة الجارية. كانت هذه الجهود تتم بالصدفة تقريبا. ندخل مدينة، وأثناء جمع الجثث نكتشف بعض جيوب الحياة التى مازالت تقاوم. بعض الأسر أو بعض أعضاء الأسر. عددهم لم يتجاوز فى أى مدينة دخلتها عدد أصابع اليدين. وعلى الفور تبدأ محاولات الإنقاذ، من الإطعام إلى غسيل الكلى، إلى تنظيف الرئتين، إلى معالجة الجلد، إلخ إلخ. ثم يتم نقلهم فورا بالطائرات إلى المعمل العائم جنوب البحر الأحمر. كانت نسبة النجاح لاتتجاوز عشراً بالمائة ممن يتم العثور عليهم أحياء أو شبه أحياء. ولكن هذه النسبة كانت تشكل كنزاً لايقدَّر بالنسبة للبحوث الدولية الجارية حول البيئة وكوارثها فى مصر. كانت هناك المعلومات البيولوجية المستقاة من التحاليل والفحوص. وكان هناك -ما يهمنى أنا أكثر- القصص التى يرويها الناجون عما حدث. وتوضح هذه القصص كل تاريخ العفن فى مصر ومحاولات مقاومته. لقد جمعت أكثر من خمسمائة شهادة، مسجلة بالصوت وبالصورة، من أناس لم يبق منهم واحد على قيد الحياة اليوم، إذ لا تبلغ فرصة حياة الناجون (العشرة بالمائة) أكثر من عام واحد على أحسن تقدير. وسوف أنشر يوما ما كل هذه الشهادات موثقة لتكون شهادة من قلب الموت على ماحدث. من ضمن هذه الشهادات قصص عن مراكز التنظيف التى أقامها رجال الفرعون قبل التخلى نهائيا عن الصعيد.

كـان النـاس يقفـون طوابـير أمـام مراكـز غسـل الكلـى بالأسـابيع. وروى لـى رجـل فـى الأربعين أن زوجته وطفليه ماتوا فى الطابور قبل الوصول إلـى ماكينـة الغسـيل. وروى لى آخرون عن ظهـور جماعة كـانت تدعـى القيام بالغسيل فـى المنـازل. ثـم يختفـون بالمريض كلية. ويقال إنهم كانوا يقطعونه ويبيعونـه أجزاء فـى القـاهرة، الكلـى وحدهـا والرئتين وحدهما وأحيانا قطعاً أخرى حسب الطلب. وقد أكد عديدون هـذه الروايـة مـن بينهم شخص وقع ضحية لإحدى هذه المجموعات إلا أنه فر منهم فى الطريق قرب بنـى سويف وعاد سيرا على الأقدام (ليلقى حتفه كلية أثناء محاولات إنقـاذه). وأخـبرنـى أحـد الناجين، وهو فى الأصل طبيب، أن هذه المجموعـات كـانت تفضـل خطـف الأطفـال، لأن نسبة التلوث بأعضائهم كـانت أقل مـن تلـك الموجـودة بأجسـاد الكبـار. ثـم هنـاك قصـة الشيخ عبدالرحمن. والشيخ عبدالرحمن هو رجل فى الستين من عمره، كان يعيش فـى أسيوط من قبل أيام العفن وكانت صحته مضرب الأمثال فى قوتها. طالته الأوبئـة مثلمـا طالت الناس جميعا، فذهب إلى أحد مراكز التنظيف ووصل فعلا إلى ماكينـة الغسـيل. إلا أن الموظف على الماكينة الذى وضعه عليها نسيه تماما وعاد إلى بيتـه بعد أن أغلـق المركز بالضبة والمفتاح. كان ذلك يوم خميس وكان السبت إجـازة عيد العمـال. وبذلـك ظل الشيخ عبدالرحمن ثلاثة أيام متتالية على ماكينة الغسيل. فلمـا عـاد الموظـف وفتـح المركز وجده قد تحول إلى نظافة محضة وتوقف عن أن يكون إنسانا عاديـا. خـرج مـن المركز سائرا دون أن تلمس قدماه الأرض (تلك هــى الروايـة مثلمـا سـمعتها فـى معظـم مدن الصعيد) سار وصار الناس يلمسونه فتنظف كلاهـم دون غسـيل. وسـرعان مـاذاع أمـره كبركـة وصـار الموبـوءون يأتونـه مـن كـل حـدب وصـوب ليلمسـوا هـذه النظافـة المحضة المتجسدة فيذهب عنهم التلوث. حتـى سمع رجـال الفرعـون فـالفرعون بـأمره

فأمر به، فاقتيد إلى قصره بالقاهرة. فلما لمسه الفرعون بيديه احترق الرجل ومات فى ساعتها. كنت أعود بكل هذه القصص إلى القاهرة وأنشر ما أستطيع نشره فى الصحف والمجلات، لكننى، والحق يقال، كنت كلما أعود إلى الصعيد أجد الحال أسوأ مما تركته. أربع وتسعون مدينة دخلتها مع فرق الصليب الأحمر، وثلاثمائة وتسع وثمانون قرية رأيت إحراقها بعينى، وعزب ونجوع لاتعد ولاتحصى رأيتهم يشعلون النار فى بقاياها ونحن نمر فى الطريق من مدينة لأخرى، حتى بدون أن نتوقف، بدون أن ندخلها أو نعرف اسمها. كأننا ملائكة الموت. ثم تريدنى أن أعيش كالأخريات؟ تريدنى أن أعود إلى جحر فى شارع فى القاهرة لأحيا فى خندقى الصغير الأعمى وأتظاهر بأن شيئا لم يكن وبأننى لم أر شيئا ولم أسمع شيئا ولم أعرف شيئا. أم تريدنى مثل ناصر أجلس فى شقتى المحكمة الإغلاق -لا أحد يعرف إلى متى- وأتحدث عن عبث المحاولة؟ أى قانون ذلك الذى يصمد أمام مارأته عيناى؟ أى منطق وأى معايير؟ هنا كل شئ مختلف ولاتستطيع أن تتكلم عن هنا، لأنك هناك ولست هنا. هنا هو هنا وليس أى مكان آخر. أنا هنا فى قلب العفن أكتب إليكم عما يجرى فى هذه اللحظة عينها، أشمه وأشعره وأراه وألمسه بيدى سائلا فى الهواء وعلى الأرض. أنا التى حملت يديها الجثث والأعضاء المفتتة وألقت بها فى الحفر الجهنمية التى لا اسم عليها ولا عنوان. أنا التى رأت الإنسان فى أسوأ حالات انحطاطه إلى مادون الحيوانات، إلى الحشرات والديدان. أنا لاأستطيع أن أعود مثلما كنت قبلها ولا أستطيع أن أغفر لمن لا يهب الآن فورا ويشعل النار فى مصرالجديدة بأكملها وفى القصر الفرعونى وفى حاشية الفرعون وفى كل من يرفع له يده بالتحية وفى جسد الفرعون شخصيا لا أحد سواه. لا أقل من ذلك. كان

الأتوبيس قد وصل إلى بنى سويف. توقف واقترب رجال الحرس الفرعونى للتفتيش. دقائق ثم استأنف رحلته صوب القاهرة.

* * *

كان المترو ينهب الأرض من حلوان إلى المرج. أنظر إلى جانبى الطريق من النافذة. ألصق وجهى فى النافذة. لم يعد هناك مايمكن عمله. ليس بيدى شئ. رجل طويل القامة يطرقع على زجاجات المياه الغازية ويبيع الشاى فى المترو. من أين يأتى هذا الماء وكيف هى حالته؟ أماء حقيقى أم ماء مصطنع؟ مر بائع الشاى والمشروبات الغازية أمامى. نظر إلىّ بعينيه الساذجتين الخبيثتين. كان يختبرنى، هل أنا زبون محتمل. لا، لست زبونا. مر بائع الشاى وتجاهلنى. أنا غير موجود بالنسبة له. أنا لا أعد لأنى لا أشرب من شايه ولا أملأ محفظته. أنا مقعد خاو أو لا شئ مطلقا. أنا الباحث الأول فى مصر، أنا حامل الحل السحرى الذى لايسمعه أحد ولايريد أن يفهمه أحد. أنا هنا على هذا المقعد وبائع الشاى ينظر من خلالى. كان ينظر إلىّ ولا يرانى. حين رأيته أول مادخلت البهو الفرعونى أدركت ألا فائدة. كان عريض المنكبين مثل بائع الشاى هذا. وكان شمعى الوجه، شديد البياض والامتقاع. حرك رأسه فى اتجاهى ببطء. كانت عيناه تنظر إلىّ ولاترانى كأنها عيون من زجاج. كان بعيدا، بعيدا جدا وكأنه غير موجود معى فى هذا البهو الفرعونى العظيم. انحنيت واقتربت منه للسلام عليه، لكنه أوقفنى بحركة من يده. المترو يدخل فى النفق. الظلام ثم الظلام مرة أخرى. الرجل الجالس قبالتى أعطى الكوب لبائع الشاى وقال:

– متشكرين ياعبدالعال، إبقى قلل السكر شوية

بائع الشاى حمل الكوب وانصرف إلى آخر العربة. فـى المحطـة القادمـة سـينزل وسيركب العربة الأخرى. عندما تكلم الفرعون أنصت. كان صوتـه مجوفًا ورنانـا. كـان يتكلم ببطء وبرتابة كأنه يتكلم فى التليفزيون. قال لى هات ماعندك. قلـت إنـى كنت أود لو توفرت لى صالة عرض وكمبيوتر وأجهزة معينة تمكنى من عرض كل شئ بـالصور والبيانات والإحصاءات، وتوضيح المسارات التى يمكـن أن تتخذهـا الأوضـاع وفقا لكـل سيناريو، والتعديلات التى يمكن إدخالها فى كل سيناريو، والنقط المفصلية التـى عندهـا يحدث أى تعديل تحولات كبرى تكتسب هى قوة دفع خاصة بها فتوفـر علينـا الكثـير مـن المجهود. رد الفرعون فى صوته الأجوف المجوف ألا وقت للأجهزة فقل لـى باختصـار مافكرتك؟ تكلمت وقلت له الفكرة الأساسية. تحدثت عن العفن والتلوث وعن تشخيصاته المحتملة، ثم دخلت فى سيناريوهات الحـل. المـترو يتوقـف فـى محطـة الملـك الصـالح. هرعت خارجا، فارتطمت بعبدالعال وهو عائد إلى العربة:

– حاسب ياأستاذ

قال لى دون أن ينظر إلىَّ وهو يدخل إلى العربـة. خرجـت مـن المحطـة مسرعا. أشرت إلى تاكسى:

– أول الهرم؟

وقف وركبت. كان رباط عنقى يخنقنى. مددت يدى وفككتـه. البدلـة البنيـة تحنـى فى هذا الصيف الحار أصلا. تقدمت فى مقعدى وخلعتها. وددت لـو ألقيهـا مـن الشـباك. لكننى لا أستطيع. ظللت أحكى للفرعون وهـو صـامت لاينبـس ببنـت شـفة. ظللـت أتكلـم كثيرا. قلت كل ماعندى. حتى قصص الدكتور بدير والشركة قلتهـا. كـان صامتـا. وكـان

صمته مريحا، إذ جعلنى أنسى للحظة هيبة وجودى فى حضرة فرعون مصر. كنت أغمض عينى وأتكلم وكنت واثقا أنه لايرانى من عرشه البعيد فى آخر البهو هناك حيث يجلس. وكنت أسترسل فى الحديث وكأنى أحكى لنفسى. كنت أتلو القصة التى تلوتها عشرين ألف مرة وصرت أحفظها عن ظهر قلب. تركنى الفرعون أنهى حديثى. أنهيته. التاكسى يعبر كوبرى عباس ويدخل إلى ميدان الجيزة. يمر للمرة المليون بجوار مبنى الشركة على الكورنيش ثم بجوار السنترال الذى لايعمل أبدا. ثم قال الفرعونُ كلمة واحدة:

– شكرا

ثم انفتح الباب ورأيت السيد مينا واقفا ينتظر. فخرجت، وانغلق الباب. حاولت الحديث مع السيد مينا لكنه كان صامتا أو راغبا فى الصمت ومقتضبا فى ردوده. هممت بإعطائه نسخة من البحث، إلا أنه ردها بأدب مؤكدا على أن لديه نسخة بالفعل. سألته عما سيحدث بعد ذلك فأجاب مستنكرا السؤال بأن الموضوع الآن فى يد الفرعون نفسه. فلم أجد ماأقوله، فأضفت أنه على العموم أنا موجود فى عنوانى لو احتاجوا إلىّ. فنظر إلىّ السيد مينا وقال:

– عندما نحتاجك سنعرف كيف نجدك

خرج معى إلى الباب الخارجى للقصر، ثم سلم علىّ بسرعة. جاءت سيارته وفتح السائق لى الباب الخلفى، فركبت وحملنى خارج القصر وخارج مصرالجديدة كلها. السائق يزفر فى ضيق فى إشارة ميدان الجيزة الأبدية. السيارات واقفة والجو حار. فتح السائق الراديو، فجاء صوت عبدالوهاب. انفتحت الإشارة. كانت الساعة تقارب

الثالثة. هذا هو موعد عودتى من العمل أيام العمل. كان التاكسى ينحدر هابطا بسرعة نفق الهرم وكانت الشمس ساطعة وكنت أدرك أنه ليس بوسعى عمل أى شئ.

• • •

القاهرة فى ١٧ نوفمبر

فخرالدين:

أمس نمت عشر ساعات بعد يومين من السهر والاستيقاظ المبكر. وفى الساعات العشر رأيتك مرة. كنا فى مبنى عال بلا حوائط وفى دور مرتفع ثم وقع زلزال هز الأشياء كلها بشدة وبس خلاص. بعدها وجدت نفسى وحيدا فى شارع فريد أبوالفتوح فى المنصورة أتفقد أثر الزلزال على المنازل وأنا غاضب وحزين، لأن واجهات منازل سقطت أو بلكونات..إلخ.

أنت تسأل فى خطابك عن الزلزال.. وكل البنى آدمين هنا لاعمل لهم سوى الحديث عن الزلزال. مرعوبين وخائفين أو يفتون فى طبيعة القشرة الأرضية ثم ينقلون تصريحات لم يقلها مسئولون ألمان ويابانيون وانجليز وفى بلاد الغال عن زلزال وشيك قوته ٨ ريختر -الأخير كان ٦- بل أبلغتنى سيدة غير فاضلة أن هناك بركانا سيثور فى الفيوم. أنا غير خائف ومر بى الزلزال الأول فى المنزل والثانى -كان ٥ ريختر- فى الوكالة. شعرت فى الاثنين بالعجز الشامل ولكنى فى العادة أنسى بعدها. مايزعجنى بشدة أنى منذ ذلك الوقت أحلم بالزلازل كثيرا وفى معظم هذه الأحلام أقوم من النوم فى منتصف الليل وأنا غير متيقن هل حدث زلزال فعلا أم لا؟

٢٥ نوفمبر

هل الوطنية أن أتعفن على مهل بين ملفات غبية؟

٣٠ نوفمبر

الآن أشعر بوحدة قوية وبقوة الوحدة وبشجن عبيط. سحر -المرأة التى كانت عابرة وصارت مستديمة- لم تعد بعد من إحدى رحلاتها الصحفية خارج القاهرة. توقفت عن العمل فى الكتاب الوهمى نهائيا. أفكر فى أن أبدأ فى كتاب آخر عن الآثار التى تنهار يوميا فى الصعيد من أثر العفن. سحر لديها بعض الصور وكثير من الشهادات والوثائق. حنين إليك وإلى عالم لن يأتى سأكون فيه عاطفيا وهادئا: أدخن البايب وفيلم الناصر صلاح الدين فى التليفزيون وأكتب لك. ألا ترى أنى مازلت مثل روبنز أفعل مئة شئ فى وقت واحد؟

٣١ ديسمبر، ليلة رأس السنة الجديدة

تلوت بضعة أسطر من محمود درويش لنفسى ولسحر الممددة بجوارى فى السرير، ثم تصبح على خير، ثم بدأت سحر تتقلب فى السرير لأقوم أنا وأجلس إلى مكتبى حافى القدمين بملابسى الداخلية أكتب مالست أعرف -بعد ٣ زجاجات بيرة- إلى مالست أعرف.

كنت أريد خطابى هذا أن يكون مالم يكن من قبل. عاطفيا ورقيقا ومحبا وإنسانيا، خاصة بعد خطابى الشتائمى السابق ولكنى أفتقد قليلا روح الدعابة اللازمة

ومازال خطابك الأبله يثير فيَّ حزنا أشد بلاهة وأتساءل هل تعرفني حقا؟ هل عرفتني من قبل؟ هل تعاطفت منذ خروجك من الوطن؟ -أى وطن!؟- طيب بلاش دى.. هل أعرفك أنا؟ هل أحببتك أنا؟ هل صادقتك وصدقتك؟. وابتلع الأسئلة لأنها عبيطة ثم أنسى انتظار أجوبة لاتجئ وأواصل سكرى مرتفعا مع ملائكة حمقاء إذ إنى لا أحب الملائكة المنضبطة وخصوصا مع تقلب سحر المستمر فى السرير.

ألا أحدثك عن الزلزال؟ وأنا بغرفة مكتبى فى منزلى بالدور العاشر مستيقظا مازالت آثار النوم بعينى وبيجامتى المطحونة تقلباً فى السرير ثم تهتز الأرض تحتى وتصدر عن الأشياء قرقعة وأوقن أن منزلنا البائد بناه مقاول لص وأنه ينهار وأنه لاوقت هناك وأنى أموت وأن فخر وأن سحر -نعم سحر التى اختفت كلية لمدة شهر- وأن الأوهام وأن الأحلام وأنى لست بعد..لست بعد، فأقفز إلى الباب أفتحه وأنزل السلالم (حافيا بالبيجاما بلا مفاتيح ولانقود ولاشئ إلاى) ألم أحدثك عن كابوس المنصورة عندما رأيت ملاك الموت -وكان حقا وصدقا- يدخل غرفتى وينام على جسدى فأشعر جفافا في حلقى وسقوطا لاإراديا فى بئر. استمرّ الكابوس ٣٠ ثانية وجثم على صدرى أسبوعا بكامله ثم تلاشى كما تلاشى الزلزال وكما تتلاشى أنت فى الحياة وتحتل الذاكرة.

وأنام الآن لأكمل غدا.

هل تنتظر الأشجار قدوم الظل أم تفرش روحها على الأرض قبل أن تموت؟

لم أستطع أن أنام من شدة السكر.

بعدما قفزت إلى باب الشقة إثر اهتزاز الحوائط والأرضية كانت جارتى بالدور الأعلى تقفز على السلالم حافية مهوشة الشعر -هل كانت نائمة مع زوجها؟- ربما لأنها كانت تصرخ فيه أن ينزل مسرعا- نزلت حافيا وبطيئا وأدركت من فتحات السلم المطلة على الدقى أن المقاول الذى بنى العمارة برئ وأن الله والطبيعة مسئولان عن هجوم الموت الأبله علينا -يبدو أنك لم تجرب الشعور بالموت أبدا- لقد خبرته حتى الآن مرتين، إذا أخذنا كابوس المنصورة فى الحسبان- عندما وصلت إلى الدور الثانى كان الاهتزاز قد توقف وأنا أيضا مستندا إلى حافة الفتحة المطلة على خلف العمارة جاف الحلق والفم. وبطيئا صعدت إلى الشقة المفتوحة الباب -لم يكن معى مفتاح أو قرش صاغ واحد- عندما أغلقت الباب خلفى شعرت أنى حى، حى، وان كانت ساقاى ترتعشان.

الثانية عشرة بالضبط.

إذا جاءك الموت هذا العام فتأكد من أنه سيتجنبك فى العام القادم

ناصر

* * *

كان حوز يتمشى فى شوارع باريس. منذ أطلق المدعى العام سراحه بضمان محل إقامته وبضمان جان له وهو مطلق السراح على ألا يغادر باريس وأن يبلغ كل يومين نقطة البوليس التابع لها بوجوده. كان يتمشى فى شوارع باريس ويفكر فيما

يمكنه عمله. بالأمس حاول الاتصال بالفرعون فى مصر ولكن كل محاولاته لم تصل إلى شئ. غاية ماتجح فى عمله هو الحديث إلى موظف فى قصر الفرعون. أهكذا يافرعون مصر! هان عليك كاتبك حتى رفضت مد يد العون له لتساعده على العودة لدياره؟ ذهبت اليوم لسفير الفرعون وقابلته. هل أقول ليتنى ما قابلته؟ لا، على العكس. فقد فهمت الوضع الآن أفضل. لكن مرارة فى حلقى تمنعنى من الكلام ومن الكتابة. أنا الكاتب المصرى عاجز عما قريب عن الكتابة. أنا عاجز عن الكتابة إليكم بلغة تفهمونها، وعاجز عن الكتابة إليكم، لأن مرارة فى حلقى تغصنى وتقمعنى. سار حور فى بوليفار سان جيرمان، ثم خرج إلى ضفاف السين القبيح اللون والمنظر. كانت السماء تمطر منذ العصر. سار وعبر جسوراً ومر بجوار اللوفر ومر إلى ميدان كونكورد ووقف عند المسلة القديمة. وقف حور وحيدا تحت المطر تحت المسلة ينظر إليها. غدا يضعوننى بجوارها. أو ربما على الناحية الأخرى: عند فندق كريون ليزيدوا جلاله بهذ القطعة التاريخية. هاأنذا أمام الحقيقة الحقيقية، أنا قطعة أثرية أو بالأكثر قطعة من التاريخ. لامكان لى هنا إلا هكذا، ولامكان لى هناك. أعطى حور ظهره لفندق كريون وسار بلا وجهة محددة.

* * *

القاهرة فى ٢٨ ديسمبر

عزيزى فخر:

المشكلة الآن واضحة كالجحيم، وسحر والدنيا تضعانى أمام لب المشكلة وجها لوجه. مرة أخرى -كم تكرر هذا المشهد- يتعين علىَّ أن أختار وأن أفعل. وأنا لاأستطيع الفعل لأنى غير متأكد من شئ ولأن لا رغبة لى فى عمل شئ، لأنى أجد كل الأشياء سواء وبلا معنى. هذا الكلام قاس ولكنى مضطر إليه -بحكم المأزق التاريخى الذى أجد فيه نفسى وليس بحكم التأمل العقلى- أو الوجدانى. ما الموضوع؟

سحر عيسى الصحفية المناضلة التى جعلت من مناهضة العفن محور حياتها - لتهرب من مواجهتها؟- والتى كانت رفيقة فراش ممتعة ثم صديقة ثم رفيقة كاملة أو شبه زوجة- فجرت المشكلة:

- لماذا لاتترك هذه الوكالة المنحطة ونعمل سويا؟

- ولماذا أتركها؟

- لأنها منحطة والعفن يأكل جدرانها وسيأتى عليها يوم وتنهار مثل مجمع التحرير عما قريب

- على الله ألا تنهار أثناء ورديتى

- أنا مش بأهذر، أنا باتكلم بجد. أنا باحترم فيك عقلك وترفعك وكل حاجة، لكن إزاى تسمح لنفسك تشوف كل مايحدث حولك وماتتحركش؟

- أنا بالضبط ماباتحركش لأنى شايف اللى بيحصل حولى

– إيه رأيك نبطل نلعب بالألفاظ وندخل فى الموضوع؟

– إتفضلى

– هل أنت مع أو ضد العفن؟

– ضده

– هل أنت شايف ان الفرعون وحكومته يحاولان فعلا مقاومة العفن أو يستطيعان مقاومته؟

– بالطبع لا

– هل أنت شايف إن فيه حد غيرنا، احنا المتعلمين أو المثقفين أو سمينا زى ماانت عايز، يقدر يوعى الشعب أو يقوم بأى دور لمواجهة هذا العفن

– لا

– إذن فسر لى موقفك السلبى وعدم قيامك بأى دور!

– أولا: حتى إذا لم يكن هناك أحد غيرنا -لاأعرف من نحن بالضبط- يستطيع مقاومة العفن فهذا لايعنى بالضرورة أننا نستطيع. نحن ياحبيبتى جزء من هذا العفن وهو قد تغلغل داخلنا. هل تعتقدى أن هذه الأقنعة تحول بيننا وبين التلوث؟ نحن جميعا ملوثون حتى النخاع. نتكلم تلوث ونتنفس تلوث ونموت من التلوث. نحن كالفرعون ورجاله بالضبط: جزء من العفن.

– إذا لافائدة؟

– لا، لافائدة. مهما تعملى، تحقيقاتك الصحفية، وأسئلتك المزعجة لبدير البنهاوى، والصور والفضائح التى تفجرينها كل يوم على صفحات الجرائد والمجلات المعارضة لن تحرك بوصة عفن واحدة من على جدار أى مبنى فى مصر. الشعب الذى

تتحدثين عنه -حتى والعفن والتلوث يطيح بالآلاف منه يوميا- منخرط فى هذا التلوث ومسئول عنه. نحن جميعا كمدمنى الهيروين. الفرعون ورجاله أيضا مدمنون ولكنهم هم التجار المستوردون له.

- طيب ماتهاجر!

- ومن قال لك إن الهجرة حل؟ أينما ذهبت سأعامل باعتبارى مدمن هيروين أو على الأقل باعتبارى مشتبها فى إدمانه أو فى قابليته الأكبر للإدمان. سأعامل ككلب سكك يجب التصرف معى بهدوء كيلا أعض أحدا، وببعض الرحمة لأنى فى النهاية مسكين وكائن حى أستحق الشفقة. ثم يأتى من يقترح ضربى بالنار لأنى أعطل الطريق وأخيف الأطفال. ويأتى المدافعون عنى (الذين يدافعون عن بقايا إنسانيتهم وليس عنى أنا) ليقولوا إنه صحيح أنى أخيف الأطفال ولكن ذلك لأنى مريض ويجب علاجى، يجب تطهيرى من التلوث ومن العفن. لكنهم جميعا فى المستشفيات والمعامل يعرفون أن العفن أصبح جزءا منى وأن استئصاله يعنى موتى أنا. والحل؟ بالكتير سأصبح كلب حراسة فى بيت كبير أو فى البوليس أو فى جامعة أو شركة. لكنى لا أصبح أبدا إنسانا مثلهم.

- دى لعنة التلوث إذن!

- لا ياسحر، دى لعنة الفراعنة.

وتنتهى المناقشة مع سحر لترحل غاضبة. تختفى شهرا أو بعض شهر فى تحقيقاتها بطول مصر وعرضها ثم تعود ثانية. لكننى، فى كل مرة أراها منذ ذلك وأنا أنفجر فى داخلى. ليس لأنى أشك فى صدق كلامى -بالعكس- لأنى أوقن من حقيقته.

ولكنى لا أستطيع تحمل ذلك أيضا. ويصيبنى دوار كلما رأيتها تحمل تحقيقا أو صورة لمقال لها.

تنتابنى رغبة قوية فى أن أختفى. ليس فى الإنتحار، لأنى أحب الحياة مثل محمود درويش مااستطعت إليها سبيلا. ولكن رغبة فى أن أختفى. فى ألا أكون قد ولدت أساسا أو وجدت. فى ألا يكون لى اسم أو ذكر أو أكون قد رأيت مارأيت أو سمعت أو فهمت.

القاهرة فى ٣١ ديسمبر–ليلة رأس السنة الجديدة

يقول محمود درويش وأنا –من قلبى– معه:

ياليتنى حجر

ياليت الفتى حجر

ناصر

• • •

سرى للغاية

من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية فى القاهرة

إلى وزارة الخارجية – واشنطن

هناك شئ غير عادى يحدث هنا. كل شئ تحت السيطرة ظاهريا. ولكن كل شئ يخرج عن أى سيطرة فى الواقع. بالرغم من اتصالاتى المكثفة مع المسئولين ومع السفراء الأجانب، إلا أننا جميعا عاجزون عن تقدير الموقف.

توجيهاتكم

السفيرة

* * *

لا أطيق البقاء فى القاهرة، لأننى أفكر دائما فى الموت الذى يضرب فى مدن الصعيد. لاأطيق البقاء فى المجلة، لأننى أرى الصحافة تحولت لديهم إلى مهنة. إلى مصدر رزق. وصرت أنا الواهمة. أنا المثالية أو المشاغبة حسب الموقف والظروف. أو حتى أنا المنحلة أو التى لم تجد رجلا يملؤها ويملأ حياتها فجعلت من العفن قضيتها. صارت سحر عيسى هى المشكلة فى المجلة وليس تحولهم إلى أكل العيش ومقتضياته من الموازنات والحسابات والمهادنة والملادنة ومضاجعة أولى الأمر. ماالعمل حين تجد نفسك فى وسط يسوده السفهاء؟ تصبح سفيها مثلهم أو تسب لهم الدين وترحل. فأرحل إلى الصعيد. فيخزق عينى ماتراه عينى وتنسحق إنسانيتى فأعود للقاهرة لأكتب عنه فأجد نفس الحقارة فأرحل إلى الصعيد، إلى القاهرة إلى الصعيد حتى أنسى -مثل الآن- أى الاتجاهات يأخذ هذا الأتوبيس! إلى أين أنا متجهة الآن؟ إلى الصعيد أم إلى القاهرة؟ سواء سواء.

* * *

القاهرة فى ٣١ ديسمبر-ليلة رأس السنة الجديدة

عزيزى جدا فخرالدين:

سحر رحلت إلى الأبد

وأنا الآن وحيد. لا أشتاق إليها. وإن كنت أشتاق إلى حالتى أيامها

أنا الآن أدخن البايب وأجلس فى حديقة نقابة الصحفيين المغطاة. أنتظر إبراهيم وآخرين للذهاب إلى سينما مترو. هناك رجل عجوز وحيد. أكيد صحفى بالمعاش، ورجل أربعينى وفتاة عشرينية تفوح منها رائحة دعارة ورجل ثلاثينى وشاب صغير يشى مجلسهم بعلاقات مكاتب الصحف العربية، وأنا. جئت مبكرا لأنى لم أحتمل المناخ الشتوى الصيفى فى الوكالة فذهبت فى الشوارع ألوى على نفسى وابتسم لسائق سيارة كاد يدهسنى -خطأه هو- ثم توقف ونظر لى فقلت له شكرا وضحكت ومضيت، ثم نظرت إلى مومس على ناصية عبدالخالق ثروت ترتدى جيبة قصيرة وقد بدت مساحيق وجهها برغم قناعها واستعدت للعمل. لم تبد محترفة بما فيه الكفاية. أشرت لها أن تعبر الشارع، فلما عبرته ناحيتى، عبرت أنا للناحية الأخرى وأنا أيتسم. ثم زعلت من نفسى فى هذه الحركة الحقيرة ولذا طلبت لنفسى كوب قهوة كبيراً فى النقابة وقررت أن أسكر هذا المساء.

١ يناير

أرأيت إلى الذى يحدث؟

أين ذهبت أنت؟ ثم أين ذهبت خطاباتك من بعدك؟ هل الدراسة ضاغطة إلى هذا الحد؟ أم ليس لديك ماتقوله لى؟

ليس عندى ماأضيفه هذا العام وأنا أتأرجح حول نفسى فى هذا الانتقال الدائم من المخادعة إلى الرخاوة إلى الاستناد على آخر يحتويك وينقذك من كل هذا العفن ويأخذك فى سفر لاينتهى إلى مفازات -متاهات الوحدة إلى الوحدة إلى الوحدة

ليس عندى ماأضيفه هذا العام. سأكتب إليك فى العام القادم.. ربما.

ناصر الخضرى

* * *

حمل الشاب الفرنسى الأنيق حقائب الدكتور هاشم محيى الدين إلى الجناح المخصص له. أمامه ليلتان يقضيهما فى باريس ليس أكثر. بعدها يسافر إلى ألمانيا وهناك سيعرف على وجه اليقين ما إذا كان التصويت سيمنحه فرصته الأخيرة أم سيعيده مرة أخرى إلى الدائرة الجهنمية للفرعون. سار فى ممرات فندق كريون باتجاه جناحه. كان هذا الجناح هو مكانه المفضل فى الفندق وفى باريس كلها منذ صار وزيرا وصار ينزل فى كريون. فتح الشاب باب الغرفة ودلف الدكتور مباشرة إلى الحمام بحثا عن دش دافئ. يومان ونصف اليوم ثم أعرف النتيجة. إما سأكون أول سكرتير عام مصرى لليونسكو أو أعود أدراجى إلى أقدام الفرعون التى ألعقها منذ عشرين عاما.

دق جرس التليفون. كان السفير على الخط. رحب بوصول الدكتور واعتذر عن غيابه عن الاستقبال الرسمى فى المطار. سأراك فى الغد. قال الدكتور هاشم ووضع السماعة. فتح باب الشرفة ونظر إلى المسلة المصرية فى الكونكورد. كان المطر مستمرا منذ وصوله. دق التليفون وقلبه معه. رد. كان مدير العلاقات العامة بالفندق يرحب بوصوله. أغلق النافذة ووقف من خلفها يرقب المسلة والمطر. لأحد فى الميدان سوى رجل وحيد يقف أسفل المسلة وينظر إليها. دق التليفون: كان موظف الاستقبال يخبره أن التذاكر التى ستقله إلى بون بعد يومين قد وصلت. الرجل ترك المسلة وسار مبتعدا عبر الميدان. دق التليفون: كان مندوب اللجنة يرحب بوصوله ويحيطه علما بموقف الدول الأعضاء الحالى. الميدان فارغ الآن إلا من المسلة والمطر والأسفلت. دق التليفون. كان مندوب من اليونسكو يرحب به. نظر الدكتور إلى المسلة: لديه مقابلات ستأخذ وقته كله خلال اليومين القادمين. سيذهب إلى مقر اليونسكو ليلتقى بالمسئولين فيها. وسيلتقى بمسئولين من الإليزيه ومن ماتينيون. ثم سفراء الدول الأربعة الأخرى الأعضاء بمجلس الأمن. ثم سفراء المجموعة الأوربية. ثم أسافر إلى ألمانيا وأنتظر وحدى فى غرفة كهذه نتيجة التصويت. ثم أحدث الفرعون وأخبره بالنتيجة. نظر إلى المسلة. إذا نجحت سأصبح فى باريس مسلة أخرى كهذه. كان المطر ينقر على زجاج النافذة ويحجب المسلة شيئا فشيئا. أغلق الدكتور هاشم الستارة. دخل فى الفراش وأغمض عينيه. فى الحلم: كان يركب طائرة خاصة عليها علم الأمم المتحدة وكانت تطير به فى أرجاء الأرض السبعة.

• • •



وفور بدأ الوباء زحف الأهالى باتجاه منطقة المهندسين فقامت قوات الحرس الفرعونى بتطويق المنطقة ومنع الأهالى من عبور جسرى ناهية والكوبرى الخشب الموصلان إلى المهندسين والدقى. وقامت بعثة فنية من الحرب الكيماوية ومن الشركة بالتوجه للمنطقة الموبوءة لفحص الحالة وخلصت هذه البعثة إلى أن المنطقتين قد أصيبتا إلى غير رجعه.

ومن ثم أعلنت وزارة الداخلية مساء اليوم أن كردون المدينة سينتهى بحذاء شارع السودان إعتبارا من أمس عند منتصف الليل. وقامت قوات الحرس الفرعونى بمعاونة فنيو الشركة بإقامة الحواجز الأتوماتيكية بطول شارع السودان لمنع أى شخص من الخروج من هاتين المنطقتين.

وقد أبلغتنا المصادر أن عدد الموتى داخل أمبابة وحدها يقدر بالآلاف وأن الجثث تنتشر بطول مجرى النيل. وقد بدأت وحدة الوقاية (من الشركة) برش المواد الكيماوية بالطائرات فوق مجرى النيل من ناحية الزمالك لحماية المدينة من أى عواقب وبائية قد تنتج عن تراكم الجثث على الجانب الآخر.